Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. محمد جابر الأنصاري

التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق

في آثار

ابن سعيد المغربي

ورحلاته المشرقية وتحولات عصره

دار الغرب الإسلامي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التفاعل الثقافي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التفاعل الثقافي

بين

المغرب والمشرق

في آثار

ابن سعيد المغربي

ورحلاته المشرقية وتحولات عصره

تأليف

د. محمد جابر الأنصاري

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1992

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: 113/5787
بيروت - لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الناشر

شاهد التفاعل الثقافي
بين المغرب والمشرق

لم يُتح لمصنِّف عربي آخر ، قبل ابن سعيد أو بعده ، القيام بدور الشاهد الثقافي ، الموسوعي المستقصي ، على التفاعل والتجاذب والجدل بين المغرب والمشرق كما أتيح لهذا المؤرخ الناقد ، والرحالة الجغرافي ، الأندلسي النشأة ، التونسي الاقامة ، المشرقي السياحات العلمية : شاماً ومصراً ، عراقاً وحجازاً . .

فقد ظهر في عصر تغيّرت وتحولت فيه مختلف مناحي الحياة العربية الاسلامية ـ مغرباً ومشرقاً ـ بل تغيرت فيه خارطة العالم الاسلامي وحدوده ذاتها . . واختفت دول وحركات ، وانتقلت مراكز الثقل السياسي والثقافي من أقطار الى أخرى ، وبرزت في الثقافة والاجتماع والأخلاق اتجاهات وخصائص لم تكن من قبل . وفي ذلك العصر شهد المغرب ظهور أعظم فلاسفته ومتصوفيه كابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، وشهد عدداً من كبار شعرائه كالرصافي البلنسي وابن زهر الحفيد وابن سهل ، كما شهد أعظم رحاليه وهو ابن جبير ، واعظم نباتي في تاريخه وهو ابن البيطار . . أما أعظم مصنفيه ، في الأدب والتاريخ والجغرافيا ، فلم يكن غير ابن سعيد ذاته . .

من هنا أتيح لابن سعيد أن تعكس آثاره موسوعية الشاهد الثقافي على التفاعل بين المشرق والمغرب في أخصب عصور التاريخ العربي الاسلامي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صورة شاملة عن بيئة اشبيلية من مختلف جوانبها وتتبع ذلك بحديث موجز عن اسرة بني سعيد ونشاطها الثقافي بقصد اعطاء فكرة عن بيئة ابن سعيد العائلية .

ويختص الفصل الأول بتاريخ حياة ابن سعيد ، حيث يعيد صياغة هذا التاريخ من الأخبار والروايات المتفرقة حسب الترتيب الزمني ليرافق ابن سعيد في حياته المبكرة في وطنه الأندلس وفي رحلاته الى أقطار المشرق بعدئذ .

أما الفصل الثاني فيبحث في شخصية ابن سعيد وثقافته العامة ويركز على عوامل تكوين شخصيته ثم على المزايا والخصائص التي نشأت تأثرا بتلك العوامل .

ويتحدث الفصل الثالث عن علمه ومصنفاته ومنهجه فيتعرض على التوالي : لحدود علمه واتجاهاته ثم لاساتذته ثم لمصنفاته على اختلاف انواعها ثم لمنهجه في التأليف .

ويأتي الفصل الرابع ليتحدث عن ابن سعيد الرحالة الجغرافي حسب الترتيب التالي : نظرة في جغرافيته الأدبية حيث دخل التصور الجغرافي في أساس تركيب كتابيه الأدبيين الكبيرين « المغرب » و « المشرق » ، ثم حديث عن أدب الرحلة عنده على ضوء ما تركه لنا من مذكرات عن زياراته لمصر ، ثم عرض لجهوده في الجغرافية الخالصة .

ويشغل الحديث عن آرائه النقدية الفصل الخامس ، حيث التفت الى مواقفه النقدية العامة وموقفه من التيارات النقدية في تاريخ الأدب العربي ، ثم فصلت آراؤه الخاصة أو ما يمكن تسميته بنقده التطبيقي الموضعي فيما يتعلق بالشعر والنثر على حد سواء .

وجاء الفصل السادس والأخير من هذا البحث ليتحدث عن شعر ابن سعيد . وقد عرضت في هذه الفصل المظاهر الرئيسية في شعره ثم التفت الى خصائصه الفنية والى المؤثرات المتعددة التي أثرت فيه . وعلى العموم فقد روعي في هذا البحث ـ عبر مختلف فصوله ـ الالتفات الى ميول ابن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سعيد الأدبية ومزاياه النفسية وآرائه النقدية في حد ذاتها أولاً ، استيفاء لمتطلبات البحث العلمي ، ومن حيث تأثيرها في مصنفاته ثانياً تحقيقا لاحد أهداف هذه الدراسة فقد أثرت تلك الآراء والميول في مصنفات تعتبر وثائق مهمة للدارس الحديث المهتم بتاريخ الأدب العربي ، ولا بد له اذا أراد ان يحسن استعمالها من التنبه الى المؤثرات التي أثرت فيها .

وبتركيز هذه الدراسة على « ظاهرة » ابن سعيد المغربي من مختلف جوانبها ، كان الهدف من وراء ذلك : تبيان مظاهر ونماذج التفاعل والتبادل الثقافي الحي بين المغرب والمشرق في إطار الحضارة العربية الإسلامية من خلال تجربة شخصية وعلمية ملموسة لأحد أعلام هذه الحضارة . هذا بالإضافة الى ابراز التزامه بمواصلة العمل الثقافي رغم الانهيارات السياسية الكبرى في عصره ، بما يعطي لابناء جيلنا من المثقفين العرب قدوة صالحة يتأملونها في عصر أشبه ما يكون بعصر ابن سعيد . . .

البحرين : المؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهداء الكتاب

إلى إحسان عباس

الرمز الأعمق للتفاعل بين المشرق والمغرب في عصرنا

تحية تقدير عميق لقامته العلمية العملاقة . .

مع خالص الحب من « المشرق الأقصى »

البحرين : م . ج . أ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد :

بين يدي البحث : شاهد عصره

شهدت الاندلس في العصر الموحدي (من منتصف القرن السادس الى حوالي منتصف القرن السابع) فترة من أخصب فترات عطائها الثقافي . ففي هذه الفترة شهدت ظهور اعظم فلاسفتها ومتصوفيها على الاطلاق مثل ابن طفيل وابن رشد وابن عربي ، وشهدت عدداً من كبار شعرائها ووشاحيها وزجاليها : كالرصافي البلنسي وابن جعفر بن سعيد ، وابن زهر الحفيد والصابوني وابن سهل وابن حجدر كما شهدت رحالة من اشهر رحاليها الا وهو ابن جبير ، ونباتياً هو أعظم نباتي في تاريخها وأعني به ابن البيطار . وفي حقل التصنيف عامة ظهر علمان يمكن وضعهما مع كبار المصنفين في المشرق والمغرب على حد سواء ، وهما : ابن الابار وابن سعيد .

هذه الفترة ـ رغم اهميتها الثقافية ـ لم تحظ بعد بحقها من الدراسة والبحث . واذا قيل انه لا يوجد مبحث واحد يعتني عناية وافية بحركتها الثقافية أو بجانب من جوانب هذه الحركة : أدباً أو تصنيفاً أو فكراً أو علماً ، لم يكن ذلك تجاوزاً للحقيقة . فالحديث عن هذه الفترة ثقافياً إما أن يكون تتمة لاستعراض عام لعصور الثقافة الاندلسية او اعلامها كما جاء في كتاب المستشرق الاسباني « بالنثيا » « تاريخ الفكر الاندلسي » أو في الجزء الخاص بالاندلس من كتاب « ظهر الاسلام » لأحمد أمين ، أو ان يأتي اكمالاً لبحث يتناول التاريخ السياسي للاندلس في عصر الموحدين ويمر بالثقافة في المامة عابرة موجزة ، كما في كتاب « تاريخ الاندلس في عهد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرابطين والموحدين » للمستشرق الالماني يوسف اشباخ ، مثلا . ورجال الفكر والعلم الاندلسيون الذين ينتسبون الى هذه الفترة درسوا ضمن ابحاث عامة في تاريخ الفلسفة العربية ، أو العلوم العربية دون ان تدرس أفكارهم وشخصياتهم على ضوء بيئتهم المحلية واحداث عصرهم ، واذا كانت الدراسات من النوع الاول لها اهميتها وضرورتها ، فان الدراسات من النوع الثاني لا تقل عنها أهمية وضرورة لما لها من شأن في ربط الفكرة والشخصية باطارهما الصلب : الزمان والمكان .

الا ان ظهور ابحاث عامة تتناول ثقافة العصر أو فرعاً من فروعها وتتمكن من التحقيق والضبط ومن التقويم والحكم في الوقت ذاته ، لا يمكن ان يقترب من حيز الامكان الا اذا مهدت لتلك الابحاث ذات الطابع العام والصبغة التقويمية دراسات جزئية تهتم بالتحقيق التاريخي او بتحقيق المخطوطات او بتسليط الضوء على شخصية من شخصيات العصر على ان تدرس تلك الشخصية ضمن اطارها الزماني والمكاني . ان تحقيق الهدف الاول مرتبط اشد الارتباط بهذا النوع من الدراسات التي قد تبدو قليلة الاهمية اذا فصلت عن اطارها العام ، ولكن النظرة المتمعنة الشاملة لا بد ان تكتشف ما لها من اهمية حقيقية ومن ضرورة حتمية . وهذا أمر تغفل عنه احياناً حتى بعض الاوساط الجامعية التي تميل الى التشديد على اهمية العطاء الذاتي في البحث العلمي . نعم ان التشديد على هذه الناحية حق وواجب وضرورة . فلا خير في دراسات جامعية تجعل من الدارس آلة لتحقيق المخطوطات وجمع الروايات من الكتب القديمة وتنظيمها وتبويبها . . . ثم تقف به عند هذا الحد ! ان ذلك وسيلة لا غاية ، والغاية القصوى هي أن يتعود المرء على الاساليب السليمة للحكم والتقويم حتى يتمكن عندئذ من اعطاء كلمة لها قيمة في شؤون النتاج العقلي ومسائل التراث فيتمكن الناس من ارساء قواعد حياتهم على اسس بينة فيما يختص بعلاقة الحاضر بالماضي وفيما يختص بتطلعاتهم الجديدة نحو المستقبل . هنا نهاية المطاف وعلى كل باحث ان يتطلع نحوها سواء تمكن من الوصول الى تحقيقها بنفسه او ساهم في الجهود المتجهة نحوها . ورأيي الخاص ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اي باحث يقوم بابحاثه في ابراج عاجية بعيداً عن تطلعات أمته والانسانية وشؤونهما وشجونهما ـ شجونهما خاصة ـ هو امرؤ ينقصه الشعور بشرف الالتزام بالمسؤولية . . الالتزام بمعناه الانساني الأبعد ! والمسؤولية بمغزاها الحياتي الأعمق . . .

كل هذا حق وواجب وضرورة .

ولكن . . لا بد مما ليس منه بد . اذ ليس بالإمكان ان نصل الى الاحكام القائمة على اساس علمي راسخ الا بمثل هذه الابحاث الجانبية الجزئية التي تضيف لبنة الى لبنة في البناء الكبير . واذا كان عصر من عصور الثقافة العربية يحتاج دراسة وبحثاً في جوانبه المختلفة فهو عصر الموحدين في الاندلس خاصة .

وهذا البحث هدفه الاسهام البسيط في خدمة لتلك الغاية الكبيرة التي تحتاج حتى تتحقق الى باحثين ذوي بأس شديد . ولقد اخترت ابن سعيد من بين رجالات العصر الموحدي ـ كشاهد ثقافي ـ لعدة أسباب ، وهي :

اولاً : ان ابن سعيد ، رغم تعدد مصنفاته وتنوع موضوعاتها ، مصنف تغلب عليه الصبغة الادبية في كل ما يكتب . بكلمة اخرى ، انه جمع في ثقافته بين فروع علمية كالتاريخ والجغرافيا والفلك وبين الميل الادبي القوي ، وقد التحم هذا الجمع في شخصيته بقوة حتى غدا طابعاً مميزاً له . وعليه فان ابن سعيد يمثل نمطاً ثقافياً شمولياً له مكانته وميزته الخاصة في العصر الموحدي ، يحسن الالتفات اليه .

ثانياً : ان عددا من كتبه كالمغرب والقدح المعلى ورايات المبرزين والغصون اليانعة تعتبر مصادر اساسية ومهمة في كتابة التاريخ الاندلسي ودراسة الادب الاندلسي في العصور السابقة عامة وفي هذا العصر خاصة . « فالمُغرب » ـ باعتراف المختصين في الادب الاندلسي ـ وثيقة لا تقدر بثمن في دراسة شعر الاندلس وشعرائها ، « والقدح » هو الآخر وثيقة هامة فيما يختص بتصور الحركة الثقافية خلال الخمسين سنة الاخيرة من حياة الاندلس . ورجل لمصنفاته مثل هذه الاهمية لا بد ان يدرس من جوانبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المختلفة حتى تعرف ميوله واتجاهاته : شخصياً وعلمياً وأدبياً ، وحتى يستفاد من مصنفاته تلك بعدئذ على ضوء تلك الميول والاتجاهات ، فان ذلك اسلم وأفيد لدقة البحث العلمي وصفاء الحقيقة التاريخية . وما اشد تأثر المصنفات القديمة بميول اصحابها واتجاهاتهم . ولقد اهتم الباحثون بأصحاب المصنفات الهامة التي تعتمد باعتبارها مصادر اولية في الدراسات التاريخية والادبية وذلك تحقيقاً لتلك الغاية ، فدرسوا ميول اصحابها الشخصية واتجاهاتهم النقدية والمذهبية والجنسية. اذكر من هذه الابحاث في النطاق الادبي البحث الذي كتبه الدكتور جبرائيل جبور عن « ابن عبد ربه وعقده » والبحث الذي كتبه الدكتور محمد احمد خلف الله عن « صاحب الاغاني » ابو الفرج الاصفهاني الرواية . وهذا البحث عن ابن سعيد يسير ، من ناحية ، في هذا الخط فيحاول الكشف عن اتجاهات ابن سعيد في التصنيف والنقد ، وعن ميوله الشخصية ويربط ذلك كله بمصنفاته التي يعطي اهمها التفاتا خاصاً . فهو اذن بحث عن « ابن سعيد ومغربه » الى حد كبير ان قصد بذلك هذه الغاية .

ثالثاً : وجدت ان ابن سعيد ، هذا المصنف والاديب والرحالة الجغرافي ، قد غمط حقه من الذكر والتعريف . فمعظم المصنفين القدامى الذين هم في مستواه كتبت عنهم التعريفات والابحاث واصبحوا معروفين لدى دارسي الادب والتاريخ . حتى ان إبن الابار ـ زميل ابن سعيد وشريكه في الجهود التصنيفية ـ كتب عنه بحثان : بحث عام عن حياته وآثاره للدكتور عبد العزيز عبد المجيد وبحث خاص يركز على مؤلفه الضخم « الحلة السيراء » للدكتور عبد الله انيس الطباع . وابن سعيد ليس اقل من ابن الابار مكانة وشهرة فلقد كان ذا شهرة واسعة في الاندلس والمغرب ثم انه امتاز عن ابن الابار برحلاته العلمية المفيدة الى المشرق وبجهوده في حقل الجغرافية .

رابعاً : هناك ميزة في ابن سعيد تختفي خلف شهرته الادبية الواسعة. تلك هي شخصيته الجغرافية، الرائدة، وهذا ليس من باب تضخيم اهمية ابن سعيد بل ان الادلة التاريخية والابحاث الجغرافية الحديثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدل على ذلك . فابن سعيد امتداد هام للمدرسة « الادريسية » في الجغرافيا بل انه تلميذ الادريسي ، هذا الجغرافي الاندلسي الصقلي النابه وخليفته . ومن ناحية اخرى فان مذكرات رحلته عن مصر خاصة ـ تذكرنا ـ من حيث اهميتها الاجتماعية والتاريخية وطابعها الشخصي بمذكرات مواطنه ابن جبير . وهكذا سنرى كيف اجتمع الادريسي من ناحية وابن جبير من ناحية اخرى في شخصية ابن سعيد الجغرافي الرحالة .

هذا من حيث الاختيار ، أما من حيث المصادر فقد أمكن الاطلاع على أغلب مؤلفات ابن سعيد بين مطبوعة ومخطوطة . الكتاب الهام الذي لم يمكن الاطلاع عليه هو كتاب « وصف الكون » في الجغرافيا ، الموجود بالمكتبة الاهلية بباريس والمتحف البريطاني بلندن ، والذي يعتقد أنه مختصر لكتاب كبير باسم « كتاب الجغرافيا في الاقاليم السبعة » الا أن ما أمكن الاطلاع عليه في هذا المجال مختصر آخر هو « بسط الارض في الطول والعرض » ، وان كان من المعتقد ان هذا الاخير أقل جودة من الاول . اما ما عدا ذلك فان مصنفاته المتيسرة لدينا يمكن ان تعد كافية لدراسة نهجه ، وعلمه ، وآرائه النقدية ، وشخصيته ، وشعره الى حد ما . الا أنها من ناحية أخرى لا تعطينا صورة دقيقة متكاملة عن تاريخ حياته الطويلة الحافلة . فترجمته في « القدح المعلى » يبدو أن الاختصار قد أخل بها فجاءت ناقصة مبتورة رغم أن هذا الكتاب كان قد ألف في زمن متأخر بالنسبة للمغرب الذي تضمن ترجمة ناقصة له أيضاً .

ومن هنا أهمية المصادر التي تترجم لابن سعيد والتي يمكن ان تكون موثوقة على أساس القرب المكاني والزماني من موطن الرجل وعصره . ومما نقله المقري في النفح عن احاطة ابن الخطيب يتضح ان هذا الاخير ، الذي يمكن الاعتماد عليه مؤرخاً موثوقاً لحياة ابن سعيد ، قد أولاه اهتماماً كبيراً وأنه ترجم له في الاحاطة باسهاب الا انه عند الرجوع الى مخطوطة الاحاطة تبين ان ترجمة ابن سعيد فيها أوجز بكثير مما ذكره المقري مما يشير الى امكانية نقل المقري عن مخطوطة للاحاطة أدق وأكمل من هذه المخطوطة التي بين أيدينا . ولا داعي لان يثير هذا الاختلاف الكثير من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشك فالحقائق الاولية مشتركة بين المخطوطة وبين ما نقله المقري والفرق في الحكايات والاشعار وليس في الاخبار المهمة . وأياً كان الامر فان جلاء هذه المسألة من مسؤولية المهتمين بتحقيق الاحاطة ومقارنة نسخها . أما فيما يختص ببحثنا فقد اعتمدنا الاحاطة فيما أوردته ورجعنا الى المقري فيما أسهب في نقله . والى جانب اعتمادنا على المقري في نقله عن ابن الخطيب ، اعتمدنا على المادة القيمة التي اوردها من كتب ابن سعيد الضائعة وعلى الاخص ديوانه . وبصورة عامة يمكن القول ان « النفح » اهم مصدر يستند اليه هذا البحث بعد كتب ابن سعيد نفسه .

وبالاضافة الى ذلك ، يمكن وضع وفيات ابن شاكر في عداد مصادرنا المعتمدة نظراً لتقدم زمنه (كتب سنة 754 هـ) ونظراً لكونه مشرقياً ـ فهو مصدرنا المشرقي الاهم ـ ونظراً لانه يخالف المصادر المغربية في مسألة وفاة ابن سعيد أما مسالك الابصار لابن فضل الله العمري فتنحصر أهميته في ايراده أشعاراً لابن سعيد لم ترد في كتبه أو في النفح ، وفي نقله لفصل مهم كتبه ابن سعيد في المقارنة بين المشرق والمغرب ولم يصل الينا منه غير شذرات مفرقة في النفح . ويفيدنا « النهل الصافي » لابن تغري بردى في تصويره للعلاقة الحميمة بين ابن سعيد وشاعر مصر الكبير في تلك الفترة البهاء زهير وفي تأكيده لوفاة ابن سعيد بالشهر واليوم حسب رواية ابن شاكر في الوفيات . ويمثل الديباج المذهب لابن فرحون مصدراً مهما بالنسبة للتحقيق في ثقافة ابن سعيد الدينية ، بينما يسعفنا تاريخ علماء بغداد لابن رافع السلامي باطلاعنا على بعض ظروف دخوله الى بغداد .

وفيما يختص بالتصور العام لعصر ابن سعيد ثقافياً اعتمدنا كتبه وخاصة المغرب والقدح بالاضافة الى مصنفات زميله ابن الابار «كالتكملة» و«المقتضب من تحفة القادم» ، وكتاب الغبريني « عنوان الدراية » الذي يصور نشاط الاندلسيين في تونس بعد النكبة . أما فيما يتعلق بالتاريخ السياسي للعصر فليست ثمة كتاب معين يهتم بهذه الناحية وكل ما وصل الينا من أخبار تلك الاحداث هو الشذرات المبثوثة في الكتب التي صنفت خصيصا لتاريخ المغرب والتي تذكر أخبار سقوط المدن الاندلسية وأحوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمـرائها المحليين من حيث عـلاقتها بـدولة الخليفـة الموحـدي المغربي وبسجل أعماله وحروبه والثورات التي قامت ضده . وينطبق هذا الوصف على اهم مصدرين عن تلك الفترة وهما « البيان المغرب » لابن عذارى الذي كتبه أواخر القرن السابع الهجري وسجلت مادته بشيء من الاناة والتفصيل ، وكتاب « روض القرطاس » لابن ابي زرع الـذي كتب أواخر الربع الاول من القرن الثامن الهجري عهد الدولة المرينية . أما ابن خلدون فقد أعطى شيئاً من الاهتمام لتلك الاحداث عندما ذكرها استطراداً عنـد حديثه عن ملوك الطوائف في الجزء الرابع ثم عاد الى الحديث عنها بعد ما يزيد عن قرن ونصف من وقوعها في الجزء السادس . وقد تم الاعتماد على هذه المصادر الثـلاثة مـع التفات خـاص الى أقدمهـا وأقربهـا من مسرح الاحداث ألا وهو « البيان المغرب » . ونظراً لان أحداث هذه الفترة على علاقة قوية بتحرك الامارات الاسبانية الغازية ، فقد يمتاز بانه اعتمد على الروايات الاسبانية ونسقها مع أخبار المصادر العربية .

وفيمـا يتعلق بفهم طابـع الادب الاندلسي في العصـور السابقـة ، والظواهر المصاحبة لـه والتيـارات البـارزة فيه فقـد اعتمدت على كتـاب الدكتور احسان عباس « تاريخ الادب الاندلسي » بجزئيه باعتبـاره أشمل المراجع وأدقها وأكثرها قرباً من الروح المنهجية .

المؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمة

البيئة السياسية والثقافية المتفاعلة بين المغرب والمشرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1) صورة عامة للبيئة السياسية والثقافية في المشرق والمغرب :

جال ابن سعيد في أقطار كثيرة من العالم الاسلامي ، واتصل بالعديدين من أمرائه وعلمائه ، وعاش في كثير من مراكز ثقافته مطلعاً ومسجلاً . ولقد أثرت حوادث عصره في حياته تأثيراً مباشراً قوياً بحيث لا يمكن تتبع تاريخ حياته ، وفهم نتاجه ، وتفسير طابعه العلمي والادبي دون الالتفات الى عصره في احداثه الهامة وخصائصه الثقافية العامة والزي الاجتماعي السائد في بلدان العالم الاسلامي التي زارها ، وهو زي يمثل ـ رغم تباين الالوان المحلية ـ وحدة ثقافية حضارية ذات سمات متقاربة بحكم التفاعل المستمر القوي بين أجزائه .

ولقد كان عصر ابن سعيد ، القرن السابع الهجري ، عصر تحول وتغير في مختلف مناحي الحياة : تغيرت فيه خارطة العالم الاسلامي بل حدوده ذاتها . . . واختفت دول وأسر حاكمة وانتقلت مراكز الثقل السياسي والثقافي من مدن الى أخرى ، بل من أقطار الى أخرى ، وبرزت على صعيد الادب والفكر والفن والاخلاق والاجتماع اتجاهات وخصائص لم تكن موجودة أو متبلورة من قبل ، ويكاد الحديث عن عصر ابن سعيد في هذه المقدمة الموجزة أن يكون أمراً بالغ العسر ولذلك فان اجمال بعض المظاهر هو كل ما يسعف عليه المقام ، راجياً ألا يؤدي ذلك الى تعميمات مخلة بالدقة العلمية .

1 ـ شهد هذا القرن في مطلعه دولتين كبيرتين في العالم الاسلامي :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الايوبية التي كانت تتمركز في مصر والشام وتمد نفوذها الى بعض أنحاء الجزيرة والعراق ، والموحدية التي كانت تحكم الاندلس والمغرب والغرب الاوسط (الجزائر) وتونس . وهاتان الدولتان اللتان ستشهدان مصرعهما حوالي منتصف القرن ، هما وليدتا ردة الفعل الاسلامية تجاه الاوضاع المضطربة اثر انهيار دول الخلافة والامارة الكبرى أو تفسخها ، وبعيد اشتداد الضغط الخارجي المتمثل في الحملات الصليبية (منذ 490 هـ / 1095) وفي ازدياد خطر الدويلات النصرانية في اسبانيا خلال فترة القرن وربع القرن المنصرمة .

فالدولة الايوبية (650 ـ 565 هـ / 1169 ـ 1249) نشأت امتداداً لدويلة عماد الدين زنكي السلجوقية التي قامت بأعباء الحرب في الحملة الصليبية الثانية (545 هـ / 1147 م) كما أنها خلفت الدولة الفاطمية في مصر التي لم تتمكن من مواجهة الخطر الخارجي بسبب التفكك الداخلي . وقد استطاعت الدولة الايوبية أن توحد مصر والشام وأن تقف في وجه الحملات الصليبية المتكررة وتهزم الصليبيين نهائياً وأن ترعى نهضة أدبية علمية في مراكز دولتها الكبرى كالقاهرة ودمشق وحلب .

وكما وقف الايوبيون في وجه الصليبيين ، وقف الموحدون في وجه الاسبان ردحاً من الزمن (539 ـ 624 هـ / 1143 ـ 1226 م) واستطاعوا اقامة دولة مغربية كبرى تشمل الاندلس والمغرب والمغرب الاوسط وتونس وقسماً من أفريقيا الغربية .

وفي ظل الحكم الموحدي الذي استطاع اشاعة الاستقرار والثقة ، شهد المغرب الاسلامي ذروة نهضته الفكرية التي تمثلها شخصيات كابن طفيل (581) وابن رشد (595) وابن جرج (601) وابن عربي (628) .

الا أن ردة الفعل القوية التي أسهمت في خلق هاتين الدولتين ما لبثت أن أصيبت بأعياء واسترخاء ، فقد شهدت الدولتان صراعاً داخلياً عنيفاً سهل للقوى المحلية المنافسة والقوى الخارجية الغازية القضاء عليهما . فعلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صعيد دولة الموحدين اشتد الصراع على الحكم بين أمرائها وأشياخها واضطرت للتراجع عن الاندلس أمام الثورات المحلية والزحف الاسباني حوالي نهاية الربع الاول من هذا القرن . وهذا ما سيتم الحديث عنه بشيء من التفصيل عند التركيز على الوضع في الاندلس خاصة .

اما الدولة الايوبية فما لبثت ان تحولت الى امارات متناحرة اضطرت تدريجاً الى الاستسلام لسلطان المماليك المتعاظم (منذ حوالي سنة 650 هـ) عندما بدأ خطر المغول يبدو للعيان من أقصى الشرق . . .

وقد برز ضعف العالم الاسلامي بصورة صارخة عندما سقطت بغداد عند أقدام هولاكو سنة 656 . وكان ذلك السقوط ، الى جانب مغزاه السياسي ، نكبة ثقافية ونفسية برزت آثارها في العالم الاسلامي كله . وكان من ضمن ما عنته تهديد التراث المكتوب في الصميم . ولولا أن دولة المماليك تمكنت من توحيد مصر والشام وايقاف المد التتري في عين جالوت سنة 660 هـ ، لكان من المحتمل أن يتغير الوجه الحضاري للمنطقة وتتعرض آثار الثقافة والعمران الاسلاميين لمصير غامض . ولكن قيام هذه الدولة في القطرين اللذين رعيا حركة العلم في العهد الايوبي أدى الى استمرار ظاهرة التأليف والتصنيف بالرغم من أن أمراء المماليك لم يكونوا كالايوبيين علماً وانفتاحاً على الثقافة العربية وتشجيعاً للعلماء .

2 ـ وفي هذا الجو السياسي كان موقف أمراء المغرب من موحدين وحفصيين ازاء الحركة العلمية موقفاً مشجعاً وسأتحدث عن ذلك تفصيلاً بعد قليل ، أما في المشرق فكان الموقف مشابهاً فقد انفتح الايوبيون على الثقافة العربية الى حد بعيد حتى نبغ منهم المتأدبون والشعراء كالملك الناصر صاحب حلب والناصر داود صاحب الكرك ، وفي ظلهم نشط في مصر الفقه السياسي بعد ركوده في العصر الفاطمي كما ازدهر الشعر والادب في كل من القاهرة ودمشق وبرزت شخصيات أدبية كابن سناء الملك (608 هـ) وابن الفارض الشاعر الصوفي (632) وابن مطروح (649) وابن ابي الاصبع (654) والبهاء زهير (656) وكمال الدين بن العديم (660) ونجم الدين الدمشقي (677) وابي الحسين الجزار (679) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسيجتمع ابن سعيد بمعظم هؤلاء ويكون معهم صداقات علمية وشخصية .

وفي ظل الحكم المملوكي ركدت الحياة الثقافية بعض الشيء ولكن الاستقرار الذي ساد المنطقة بعد انتهاء المدين الصليبي والمغولي ساعد على التوفر للبحث والتنقيب فبدأت تظهر المصنفات الشاملة والموسوعات الضخمة .

والطابع العام للحياة العقلية في هذا العصر غلبة النزعة السنية واشتداد قوتها في الدين والفكر ، وسيطرة الشكل والزخرف على حساب الفكرة والشعور في الاداب والفنون، وقوة الميل نحو الجمع والنقل أو الاختصار والشرح في حقل التأليف والتصنيف .

وقبل اطلالة هذا القرن كانت الاحداث الهامة التالية قد تمت في حياة الفكر العربي :

أ ـ ألغى صلاح الدين المذهب الشيعي في مصر وجعل من المذهب السني مذهباً رسمياً للدولة تدافع عنه ، وتعلمه في معاهدها وتلتزم به وتذيعه ، وقد شفع ذلك بمقاومته العنيفة لفرقة الاسماعيليين الباطنية في شمال سوريا .

ب ـ صُفِّيَ السهروردي صاحب الفلسفة الاشراقية على يد الظاهر بن صلاح الدين في حلب بضغط من فقهاء السنة .

جـ ـ نكب ابن رشد على يد الخليفة الموحدي أبي يوسف المنصور، بضغط شديد أيضاً من المحافظين فنفي ومنعت كتبه من التداول . ورافق ذلك وقوف الدولة الموحدية ضد الفلسفة وفقه الفروع وتشجيعها الرسمي لعلم الحديث وفقه الظاهرية .

وقد سبق بروز هذه الاتجاهات الهامة خلال القرن السادس ، انتصار تفكير الغزالي وسيادته ونصرة الدولة السلجوقية له وتبنيها لآرائه . كما مهد لتلك الاتجاهات ورافقها جو من الحماسة الدينية ضد الصليبيين والاسبان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الخارج وضد الامارات والفرق غير السنية التي لم تتمكن من الوقوف في وجه الاعداء من ناحية والتي كانت تميل من ناحية أخرى الى أنماط من التفكير لا ترضى عنها النزعة الدينية المستقيمة الصارمة من حيث تشجيع الفلسفة وتبني الآراء الباطنية .

وهكذا فما أن أطل القرن السابع الا والاتجاه السني المحافظ يسيطر في قوة وثقة على أرضية الحياة الفكرية العربية من بغداد وحلب الى أشبيلية وتونس . وقد أدى هذا الاتجاه الى ازدهار الدراسات القرآنية ضمن الاطار السني والى زيادة الإهتمام بالحديث النبوي باعتباره مصدراً هاماً للسنة والى تشجيع المدارس الدينية والمحافظة لكتب التراث الديني والتاريخي . وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الاتجاه الى تقوية نفوذ الفقهاء على الصعيدين الثقافي والسياسي على حد سواء .

3 ـ وعلى صعيد الفن ، يمكن القول ان الفن الاسلامي في هذا العصر بلغ ذروته كما تمثل في الآثار التصويرية والزخرفية ، الايوبية والمملوكية ، وكما تمثل أيضاً في الآثار المعمارية المشهورة كعمارات دمشق وحلب ، وكجامع السلطان حسن في القاهرة ، وجامع أشبيلية ذي المنارة المعروفة بالجيرالدا ، و « القصر » الاشبيلي . والخاصة المميزة للفن ـ في هذا العصر بالذات ـ ميله الشديد الى الزخرف ، تلك الظاهرة التي عرفت عن المدرسة الايوبية الفنية في الشام والتي انتقلت الى مصر في عهدي الايوبين والمماليك[1] وكذلك تتفق المدرسة الاندلسية مع الايوبية « في الاستناد على قاعدة الاغراق في الزخرفة لاظهار ما فيها من سحر وجمال[2] » .

وقد ادى هذا الميل الزخرفي الى غلبة الشكل على الموضوع ، فاعتنى الفنانون ـ حتى في تصويرهم للبشر ـ بتزيين الملابس ونقشها بالالوان البهيجة دون ان يلتفتوا الى اظهار الانفعالات والاحاسيس على

---

(1) زكي حسن ، فنون الإسلام ، ص 248 ـ 249 .

(2) فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ، ح ، ص 782 ـ 783 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوجوه التي اتصفت بالجمود وعدم المشاركة في جو الصورة المحيط بها .

وهذا الطابع الشكلي الزخرفي ذاته غلب على الادب وعلى التوجيه النقدي . وان اهتمام الشعراء المسرف بالصورة البيانية والمحسنات البديعية وميل النقاد الشديد لشرح وتفنيد هذه المسائل لدليل واضح على غلبة هذه الظاهرة . وسنرى مدى تأثير ذلك على ابن سعيد في نقده وشعره وأعماله التصنيفية الاخرى من خلال التيار النقدي والمذهب الشعري الذي يتحرك في اطاره .

4 ـ وفي حقل الانتاج الثقافي عموماً اختفت الظواهر التجديدية أو كادت وأصبح العقل أميل الى التقليد وقد أدت الى ذلك عوامل كثيرة أبرزها الاعياء الذي أصيبت به الحضارة العربية بعد قرون ستة من الفعل الحضاري المتنوع ، واستنزاف الطاقة في فتن داخلية وحروب خارجية ، وسيادة النزعة السنية التي ترفع بطبعها من شأن القديم . ثم أن تراكم التراث الثقافي عبر العصور واتحاده مع عالم الزمن جعل منه كائناً حضارياً له جلاله ان لم نقل قدسيته ، في نظر العقول في العصر الذي نتحدث عنه ، وهو عصر كما تبين لنا ـ سادت فيه الحركات « الاحيائية » على صعيد العمل السياسي والنشاط العقلي ـ وتمثلت في حركة صلاح الدين وما خلفته من آثار وفي حركة ابن تومرت وعبد المؤمن الموحدي وما أدت اليه من نتائج .

وهكذا أصبح هدف النشاط العقلي فهم التراث والتلاؤم معه وتقليده ـ وان وجدنا بعض المذاهب في الادب خاصة ـ تقول بأفضلية الجديد أو مساواته مع القديم فما ذلك الا من شدة الاحساس بوطأة ذلك القديم . والواقع ان أنصار أمثال تلك المذاهب كانوا يفكرون في تجديدات شكلية كالاسراف في البيان والبديع : ولم يكونوا يعبرون عن معارضة جوهرية للأنماط السائدة الموروثة في المعطيات الفكرية الرئيسية .

ونتيجة لذلك سنرى كيف ان هذا العصر سيكون بداية لتلك الاعمال الجمعية التصنيفية الكبرى التي تشبه الموسوعات أو الاعمال التلخيصية الموجزة أو الاعمال التفسيرية التي تهتم باعطاء الشروح . وكل هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاعمال هدفها الاكبر خدمة التراث وتسهيل الطريق أمام العقل المعاصر ليفهمه ويتلاءم معه ، ذلك العقل الذي كان همه الاكبر طلب « القاعدة » و « القانون » المستخرجين من كتب القدماء ، وهو ان حاول التجديد ففي الفروع والتفاصيل ـ ومن هنا يمكن تفسير ولوع العقل في هذا العصر والعصور التالية بالجزئيات وصغائر الامور ـ فهنا فقط يمكن التجديد .

والواقع ان القاء نظرة عجلى على أمهات الكتب التي ظهرت في القرن السابع تكفي لاقناع المرء بانتشار هذه الظاهرة وسيطرتها على الحياة الثقافية . ففي حقل حفظ النصوص الشعرية والنثرية وجمعها وتبويبها لدينا مجهود ابن سعيد نفسه (685) في كتابيه الضخمين « المغرب » و « المشرق » اللذين أمضى في سبيلهما عمره متنقلاً مسجلاً : في هذين الكتابين حاول ابن سعيد تقديم نتاج الاقطار الاسلامية قطراً قطراً ومدينة مدينة في ميدان الشعر خاصة منذ بداية ظهور النتاج الشعري فيها حتى عصره .

وفي حقل الدراسات القرآنية ظهر «تفسير » الفخر الرازي (606) وكتابه في « اعجاز القرآن » كما صنف ابن ابي الاصبع العدواني (654) كتابي « البرهان في اعجاز القرآن » و « بدائع القرآن » .

وفي ميدان اللغة والبلاغة والنقد قام أبو البقاء العكبري (616) **بشرح** ديوان المتنبي ومقامات الحريري ، وعمل السكاكي (626) على **ايجاز وتقعيد** كل من الصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض في كتابه « مفتاح العلوم » الذي شغل الشراح والملخصين فترة طويلة من الزمن ، وفي الوقت ذاته كان ضياء الدين ابن الاثير (637) يلخص الذوق الفني والبراعة الفنية في كتابه « المثل السائر » الذي وصف بأنه « بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الاحكام » . كما قام ابن ابي الحديد (655) بشرح نهج البلاغة وعمل الزنجاني (655) على وضع شروح وملخصات في الصرف والنحو ، وقام ابن مالك (672) صاحب « الالفية » بعمل مماثل في ميدان النحو .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما في حقل التاريخ العام وتاريخ الدول فقد ألف عبد الرحمن بن الجوزي (597) كتابه « المنتظم » ووضع عز الدين بن الاثير (630) موسوعته الهامة « الكامل » وأرّخ عبد الواحد المراكشي (621) لاخبار الدولتين المرابطية والموحدية في كتابه « المعجب » . وفي حقل التراجم وضع ياقوت الحموي (626) « معجم الأدباء » ـ بالاضافة الى موسوعته الأدبية ـ الجغرافية « معجم البلدان » ـ كما وضع ابن شداد (632) كتاب « النوادر السلطانية » في سيرة صلاح الدين وترجم جمال الدين القفطي (646) للعلماء على اختلاف منازعهم من أطباء وفلاسفة ولغويين في كتابيه « أخبار العلماء » و « أنباء النحاة » كما ترجم للعلماء ابن ابي أصيبعة (668) أهم مصنفاته مثل : « تكملة الصلة » و « المعجم » و « الحلة السيراء » . وفي أواخر القرن كان ابن خلكان (681) يترجم لمشاهير العلماء والوزراء والشعراء منذ فجر الاسلام حتى زمنه في موسوعته الضخمة « وفيات الاعيان » .

ومن الظواهر الثقافية الاخرى التي يحسن الالتفات اليها في هذا العصر ما يلي :

أ ـ استمرار اشراف الدولة على معاهد العلم ـ الديني خاصة ـ وتشجيعها لها . وقد تمثلت هذه الظاهرة في المدارس الايوبية في مصر والشام والمدارس الموحدية في الاندلس ومراكش على حد سواء . وقد أدى ذلك الى ارتباط النشاط الثقافي ارتباطاً قوياً بالحكم واتجاهاته .

ب ـ زيادة العناية بالمكتبات الخاصة والعامة لحفظ كتب التراث المتراكم . وقد اعتنت المعاهد الرسمية بهذه الناحية كالمدرسة الفاضلية في القاهرة والنظامية ببغداد ، بالاضافة الى الجهود الفردية في جمع الكتب الثمينة كجهود كمال الدين بن العديم والقفطي .

ج ـ **قوة الاحتكاك بين رجال العلم** : فقد حدث احتكاك بين رجال العلم المسلمين في هذا القرن بشكل واسع ، وكانت الدواعي متعددة : فالذين كانوا يجمعون نصوص الشعر والنثر والروايات جالوا في الاقطار لجمع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مادتهم ، والذين تعرضت مدنهم للغزو كالقرطبيين والبلنسيين والاشبيليين والبغداديين رحلوا الى مراكز ثقافية أخرى التجاء وابتغاء للرزق . كما كان الرحالة من الجغرافيين يجوبون الاقطار معرفين الناس ببلدان العالم محببين اليهم الرحلة كالسائح الهروي (611) صاحب « الاشارات الى معرفة الزيارات » وعبد اللطيف البغدادي (629) ، والقزويني (682) والعبدري (688) . وقد ساعد ذلك كله في تقوية التفاعل بين أجزاء العالم الاسلامي ، وأبعد الاشخاص أثراً في هذا الميدان أولئك العلماء المغاربة الذين رحلوا الى المشرق حيث عرفوا أهله بأحوال المغرب ثم عادوا الى بلادهم لينقلوا اليها صورة عن المجتمع الشرقي والثقافة المشرقية . وقد كان ابن سعيد في طليعة هؤلاء العلماء المغاربة في هذا القرن . فلقد عرف المشارقة بالمغرب عبر كتابه الكبير « المغرب » وكتابه الشعري المختصر « روايات المبرزين » كما أنه ألف كتاب « المشرق » وكتاب « الغصون » اللذين يحويان مادة عن المشارقة وأدبهم .

2 ـ الاندلس في عصر ابن سعيد
بين 595 ـ 646 هـ / 1199 ـ 1248 م /

1 ـ تمهيد :

هذه الحقبة التي سنخصها بشيء من التفصيل ـ تمهيداً لدراسة ابن سعيد ، ومحاولة لفهم الجو السياسي والثقافي الذي نشأ فيه وتأثر به ـ تقع بين حادثين زمنيين مهمين يجعلان منها حقبة متميزة بذاتها . أما الحادث الاول فهو وفاة الخليفة الموحدي العظيم أبي يوسف يعقوب المنصور، قاهر جيوش الاسبان في معركة الارك (591) ـ آخر معركة ثبت فيها الوجود العسكري الاسلامي في اسبانيا ـ والقيّم على أزهى حركة فكرية شهدها الغرب الاسلامي ـ حركة ابن طفيل وابن رشد ـ سنة 595 هـ ، وتولي ابنه محمد الناصر اللين العريكة ، المفتقر الى الحزم الحكم مكانه ، هذا الخلف الذي سيقود جيوش الموحدين الى الهزيمة المنكرة في موقعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقاب (609) ـ بداية النهاية في التاريخ الاندلسي ـ والذي سينعزل بعدئذ في قصره بمراكش ليتلاشى في حياة لاهية[1] . أما الحادث الثاني فسقوط اشبيلية ـ عاصمة الاندلس الموحدية ـ في يد فرديناند الثالث ملك قشتاله ورحيل اميرها الموحدي أبي عبد الله بن أبي العلاء ادريس المأمون عنها ـ مع جموع غفيرة من اهاليها سنة 646[2] .

أي أننا سنصحب الاندلس في عهد سقوط مدنها الرئيسية ـ عدا غرناطة ـ في يد الاسبان ونصحب اشبيلية العربية خلال سنينها الخمسين الاخيرة منذ انتهاء آخر عصر ذهبي لها بوفاة المنصور حتى سقوطها الاخير . والواقع أن هذه اللوحة الختامية من المشهد الاندلسي لوحة صارخة الالوان ، صاخبة الحركة ، متشابكة الاضواء والظلال . انها توهج الجذوة قبيل الانطفاء ، بل قل انتفاضة النزع الاخير : ولذلك برزت فيها المتناقضات بشكل حاد وفي حركة سريعة متلاحقة ، وأخذت جوانب الحياة تؤثر في بعضها البعض بصورة دينامية فعالة لا تشاهد في السنين المسالمة العادية . من هذه التأثرات والتفاعلات الهامة العلاقة القوية التي ستنشأ بين الجانب الثقافي والجانب السياسي الحربي ، لا من حيث التأثير غير المباشر كاغناء الادب ـ مثلاً ـ بأحداث السياسة والحرب فحسب ، بل من حيث التقرير الحاسم لمصائر رجال الثقافة المشاركين في الاحداث أو الراغبين عنها على حد سواء . وسيتغلف هذا التفاعل بوضع اجتماعي نفسي تهتز فيه المقاييس اهتزازاً عنيفاً حتى ليكاد المرء ـ من شدة تداخل الخطوط ـ لا يميز بين « فضيلة » و « رذيلة » وبين « ايمان » و « كفر » حتى تلك الحواجز التاريخية الفاصلة بين حضارتين متميزتين ستنال نصيبها من الهدم أو الزحزحة : في هذا العصر سيلجأ أمير موحدي من سلالة عبد المؤمن ـ كأبي زيد بن محمد بن أبي حفص[3] ـ الى مملكة أراجون

---

(1) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص 160 .

(2) ابن خلدون ، كتاب العبر ، 6/258 .

(3) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب : 3/270 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسبانية ليعتنق النصرانية في سبيل استرجاع مقعد حكمه المهتز في بلنسية ، وسيغادر امام في الحديث حلقة تدريسه ـ كما فعل أبو الربيع الكلاعي[1] ـ ليقود كتائب المجاهدين في موقعة أنيشة قرب بلنسية ويقتل في المعركة ، وستنتقل كتيبة نصرانية بأمر من ملك قشتالة الى معقل الموحدين في مراكش لتحمي أمير « المؤمنين » المأمون[2] من شرور أفراد عائلته ومستشاريه من أشياخ الموحدين ، وسيقتل الفقيه ابن الياسمين الاشبيلي ـ وهو من أعلام العارفين بالوثيقة[3] ـ قتلة مخزية في فضيحة « غلمانية » ، وسيقطع ابن الابار ـ كبير مصنفي العصر ـ ويحرق مع مصنفاته بسبب وشايات على الارجح[4] ، وسيتهم قاضي اشبيلية في عهد المنصور والناصر بأنه « غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق[5] » وسينتقل فجأة عالم زاهد متواضع ـ كأبي بكر عزيز بن خطاب ـ الى زي أصحاب السيوف وأخذ الاموال من غير وجهها وسفك الدماء[6] في امارة مرسية حيث سينقض عليه ويغتاله ابن مردنيش وهو من ضيع ملكه في بلنسية ! بل ستنقلب الدولة الموحدية على مؤسسها الفكري وأبيها الروحي ـ المهدي بن تومرت ـ لتتهمه على لسان أميرها المأمون بالدس والكذب ولتبطل مهدويته وتتحلل من التزامها بمبادئه[7] في جو ارهابي دموي تعلق فيه آلاف الرؤوس على الجدران وتتعفن فاذا بها ذات روايح « عطرة »[8] في أنف أمير المؤمنين ! .

---

(1) كتاب العبر : 283/6 .

(2) البيان المغرب : 264/3 .

(3) ابن سعيد المغربي ، الغصون اليانعة ، ص 42 ـ 50 .

(4) المغربي ، أزهار الرياض 207/3 .

(5) الغصون 91 ـ 92 .

(6) ابن سعيد ، القدح المعلي ، ص 146 .

(7) الحلل الموشية ، ص 137 .

(8) الحلل الموشية ص 138 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

2 ـ أهمية الدولة الموحدية في حياة الاندلس :

لسنا بصدد الحديث عن الدولة الموحدية من حيث نشأتها وتطورها ومكانتها في سير التاريخ ، فالتوسع في ذلك خارج عن نطاق هذا البحث . ولكن الذي يهمنا من هذا كله التنبه الى الامور التالية :

أ ـ ان هذه الدولة دولة بربرية الأصل نشأت في المغرب الأقصى في عصر كان العالم الإسلامي يشهد فيه حركات إحيائية على صعيد الفكر الديني والعمل السياسي هدفها محاربة الإنحلال الإجتماعي والخلقي ومواجهة الهزائم التي حلت بالعالم الاسلامي منذ بداية الحملات الصليبية أو القضاء على الامارات المتناحرة التي سبقت زمن تلك الحملات وكانت من أسباب نجاحها . وقد كانت تلك الحركات تغلب الطابع العقيدي وتقوم بقيادة دعاة دينيين او قادة سياسيين عسكريين عليهم مسحة الدعاة ولا ترتبط في اساسها ـ الفكري على الاقل ـ بحقوق عائلات معينة في الحكم كما فعل العباسيون والفاطميون من قبل . والدولة الموحدية من الامثلة البارزة لمثل هذه الحركات . فقد قامت على أساس عقيدي مرتبط بشخصية المهدي ابن تومرت وقادها رجال يرتبطون في الدرجة الاولى برباط عقيدة معينة . . وكانت قاعدتها ـ بالرغم من طابعها القبلي ـ تتحرك بدافع من الحمية الدينية والرغبة الاصلاحية . وتقوم دعوة المهدي (485 ـ 524) على اصول اشعرية ومعتزلية وتحمل طابع الغزالي في التجديد الديني والدعوة الى الرجوع الى اصول الدين ، كما أنها تقرب من المنزع الشيعي في المهدوية والعصمة . وهي من حيث نتائجها العملية تدعو الى دعوة للاسلام الصحيح قولاً وعملاً بتأكيدها على ضرورة العمل والدعوة ، والاعتماد على أصول الدين من كتاب وسنة ونبذ للتعلق بالفروع التي سببت التفرقة وحجبت الاصل . وبسبب ذلك نجد أن الحركة الموحدية تتعاطف مع المذهب الظاهري الذي أسسه في المشرق أبو داود ودافع عنه في الاندلس ابن حزم ، وتبدي نوعاً من الجفاء تجاه المذهب المالكي وفقهاء المالكية .

ب ـ وقد ارتبط العامل العقيدي بالعامل السياسي الحربي عندما أقنع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن تومرت القائد عبد المؤمن بن علي بالانضمام الى دعوته . فعلى يد هذا القائد تحولت الدعوة الى دولة بعد وفاة الداعية الاول بما يقارب العشر سنوات ، اذ بدأت أعمال عبد المؤمن الحربية في سنة 534 بالسيطرة على المغرب فالمغرب الاوسط فتونس فالاندلس التي انتهى من الاستيلاء عليها سنة 555 . واصطدم عبد المؤمن خلال حروبه هذه بقوتين رئيسيتين : الدولة المرابطية التي كانت تحكم المغرب والاندلس والاسبان الذين كانوا يهددون المدن الاندلسية في أواخر حكم المرابطين القصير المضطرب . وقد دخل عبد المؤمن الاندلس بدعوة من أهلها الذين سئموا الحكم المرابطي بطابعه القبلي الصحراوي وتدخله المباشر في شؤون الاندلس وضغطه على حرية الثقافة . وهكذا فالدولة الموحدية هي الدولة المغربية الثانية التي تستنجد بها الاندلس لحمايتها من الزحف الاسباني الآتي من الشمال بعد ان ذهبت وحدتها السياسية .

ج ـ يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن السادس الهجري والسنوات الاولى من القرن السابع (حتى حوالي 610) عصر المزاوجة بين الثقافة الاندلسية وبين « السلم » الموحدي . فان الثقافة الاندلسية التي شهدت ازدهارها في أواخر الحكم الاموي العامري وخلال عهد الطوائف لم تستطع أن تستمر في نموها بعد ازدياد خطر الاسبان وشيوع روح التناحر الداخلي . وأصبح من الضروري أن توفر لنفسها « سلماً » خارجيا بشكل أو بآخر حتى تستطيع أن تحتمي بظله . وقد تمثلت محاولات البحث عن هذا السلم في السياسة الاندلسية منذ أواخر عهد الطوائف في :

أ ـ عقد محالفات أو اتفاقيات هدنة مع الامارات الاسبانية .

ب ـ الاستنجاد بالمرابطين .

ج ـ عودة الى الاستنجاد بالامارات الاسبانية بعد أن اتضح أن السلم المرابطي سلم مرهق .

د ـ الاستنجاد بالموحدين بعد فشل محاولات الحكم المحلي بعيد اهتزاز الحكم المرابطي ، وبعد أن اتضح أن سلم الاسبان ما هو الا تمهيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للقضاء التام على الاندلس العربية .

وهكذا جاء « السلم الموحدي » ليعطي الثقافة الاندلسية فرصة جديدة من فرص النمو والازدهار خاصة وأن الموحدين لم يكونوا في تعصب المرابطين ازاء النشاط العقلي ، وان كانوا سيؤثرون في طريق سيرها طبقاً لمعتقدهم الديني والفقهي . فبعد وفاة عبد المؤمن تولى الحكم بعده ابنه أبو يعقوب يوسف (مدة حكمه 558 ـ 580) الذي سار على سياسة أبيه في اقرار السلم في المغرب ومهاجمة الاسبان في الاندلس . وقد أمضى أبو يعقوب فترة طويلة في الاندلس أثناء حكم أبيه حيث كان والياً على أشبيلية العاصمة فكان من الطبيعي أن يتفاعل مع الثقافة الاندلسية ويتعاطف معها ، حتى برزت له شخصية علمية الى جانب شخصيته السياسية والحربية : فقد شغف بأخبار العرب وأيامهم ومال الى علوم اللغة « وكان متفنناً في العلوم الشرعية والاصولية[1] » ثم جاء من بعده ولده أبو يوسف يعقوب المنصور (580 ـ 595) الذي بلغ العهد الموحدي في ظله عصره الذهبي وتألقت أشبيلية تحت حكمه آخر فترات تألقها السياسي ومن ملامح عهده السياسية والحربية البارزة : قضاؤه على امارة بني غانية وترحيله للقبائل العربية التي ناصرتهم الى أقصى المغرب وانتصاره على الاسبان في معركة الارك (591) واتصال صلاح الدين الايوبي به بقصد التحالف ضد الغرب . أما الملامح الحضارية والثقافية لعهده فمن أبرزها : ازدهار حركة عمرانية تمثلت في بناء مدينة الرباط ومسجد سلا ومدرسته . والجامع الاعظم بمراكش وصومعة الكتبيين والبيمارستان المراكشي ، ومئذنة جامع أشبيلية (الجيرالدا) والسور الميحط بها . كما استظل ببلاطه أكبر فلاسفة العصر وعلمائه كابن زهر الطبيب وابن طفيل وابن رشد وأبي بكر بن الجد وعبد الملك بن عياش الكاتب ، وقد تطعمت أجهزة حكمه بالعناصر الاندلسية المثقفة فكان أكثر قضاته وكتابه من الاندلسيين . ومن أحداث عصره الثقافية الهامة أيضاً : اتضاح ميل الدولة نحو المذهب الظاهري واشتداد محاربة فقه

---

(1) البيان المغرب 3/183 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفروع والتحول الخطير الذي طرأ على موقفها تجاه الفلسفة والذي تمثل في نكبة ابن رشد سنة 593 وتفرق « تلاميذه أيدي سبأ »[1] .

وعلى العموم تعد هذه الفترة السابقة للحقبة موضع البحث ، فترة استقرار وانتاج ، فلقد زرع السلم الموحدي القوي بذور الاستقرار بشيء من التسامح والمراعاة للشخصية الاندلسية ، وواصلت الثقافة الاندلسية نتاجها العقلي بشيء من الاطمئنان . ولكن بعد وفاة الخليفة المنصور أخذت تلك المزاوجة الموحدية ـ الاندلسية تنحل تدريجاً بفعل عوامل وأحداث سنتأملها بعد قليل ، وأخذ الوضع الحضاري ـ الثقافي ـ السياسي يتجه نحو اتخاذ قالب جديد مغاير تماماً للتركيب السابق في حركة سريعة متلاحقة الحلقات تتصف ـ كما أشرت ـ بكثرة التقلب وحدّة التناقض .

3 ـ الوضع السياسي بين : 595 ـ 646 هـ / 1199 ـ 1248 م /

تولى محمد الناصر بن يعقوب المنصور الحكم سنة 595 ، وقد تمت له البيعة الأولى في حياة أبيه الذي اختلف المؤرخون حول مصيره : فمن قائل أنه دفن بمراكش ومن قائل أنه تزهد وساح في الأرض حتى توفي بالشام وأصبح قبره مزاراً[2] . ومهما كان الأمر فان محمد الناصر ، بويع بيعة العامة بعد أسبوع من وفاة أبيه وذلك في العشر الاخر من ربيع الأول سنة 595 ، واستوثقت له الخلافة بهذه البيعة [3] .

وكان الموقف السياسي في بلاد الأندلس والمغرب عشية تولي محمد الناصر الخلافة متأثراً بمواقف القوى التالية :

أ ـ الجبهة الموحدية الحاكمة وما كان يعتريها من صراع داخلي بين

---

(1) البيان المغرب 3/202 .

(2) الناصري ـ الإستقصاء 2/181 ـ 184 .

(3) البيان المغربي 3/211 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمراء وأشياخ الموحدين .

ب ـ العناصر الداخلية في الدولة الموحدية المنقسمة على النحو التالي :

1 ـ قبائل العرب التي بدأت تستوطن المغرب مصطدمة بالعناصر البربرية المحلية ، مشاركة في كثير من حركات التمرد وحوادث السلب والنهب[1] .

2 ـ بقايا الأمراء من عهد المرابطين كبني غانية الذين تمركزوا في جزيرة ميورقة بشرق الأندلس وأخذوا يهاجمون الجزر والسواحل الموحدية في تونس ، واستطاعوا أن يتوغلوا الى الداخل ويتحصنوا في مدن كالمهدية ويقاوموا جيوش الخليفة نفسه[2] .

3 ـ الزعماء الأندلسيون الذين سرعان ما يستغلون الشعور المحلي ضد سيطرة الدولة أو بسبب تعاونها في مقارعة الاسبان أو نظراً لصراعاتها الداخلية .

ومن أشهر الذين برزوا أيام الناصر عبد الرحيم بن الفرس ، وهو « من طبقة العلماء بالأندلس . . انتحل الامامة وادعى أنه القحطاني » الذي بشر به حديث نبوي[3] .

ج ـ الامارات الاسبانية التي كان موقفها حرجاً مزعزعاً بعد موقعة الارك . الا أن عدم تمكن الخليفة الجديد من استغلال هذا الوضع فتح للاسبان مجال التجمع والاستعداد للحرب من جديد[4] .

وقد اضطر الناصر في السنين العشر الأولى من حكمه ـ وقبل أن يصطدم بالاسبان ـ الى الدخول في معارك محلية كثيرة بددت طاقة الدولة . فقد أبعد ابن غانية عن تونس بعد معارك بحرية وبرية كثيرة . وبعث جيشاً

---

(1) البيان المغربي 213 / 214 .

(2) البيان المغرب ، 219 ـ 221 .

(3) كتاب العبر 6/250 .

(4) يوسف أشباخ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/94

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتأديب قبائل العرب المتمردة فانتصرت عليه أول الأمر وبددت شمله[1] . كما صرف جهداً كبيراً في القضاء على ابن الفرس ، وجهداً مماثلاً في أخذ جزيرتي ميورقة ومنورقة من يد بقايا المرابطين . في هذه الأثناء كان الاسبان يستعدون لجولة جديدة : فقد أرسل ملك قشتالة رسولاً الى البابا لكي يعلن الجهاد المقدس في أوروبا ، ورسولاً آخر الى فرنسا . وفي الوقت ذاته عقد مؤتمر اسباني جامع في قونقه تحت إشراف الفونسو النبيل[2] . ويبدو أن السبب المباشر الذي دفع الناصر للحرب « تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية » مما أهمه وأقلقه ، فغادر مراكش الى أشبيلية ومنها الى محاصرة حصن شلبطرة المنيع[3] . ويرى أشباخ أن هذا هو الخطأ الأساسي في تخطيطه للحرب . فقد أجهد جيشه في الحصار[4] فلم يتمكن بعدئذ من قتال الاسبان في موقعة العقاب حيث كانت الهزيمة ساحقة . ويرى المؤرخون أن من أسباب ضعف سياسة الناصر اعتماده على وزراء لا يوثق بهم وشدته مع أشياخ الموحدين بعد هزيمة العقاب ولقد كان ذلك سبباً في هزيمته وفي موته إذ « ذكر أن بعض وزرائه أغروا به من سمّه لأنهم خافوا منه ان يقتلهم فيما جنوه[5] وكان ذلك سنة 610 هـ[6] .

بعد هزيمة العقاب هذه التي قوّت مركز الاسبان وتسببت نتائجها في تصديع الجبهة الداخلية في الدولة هامة وفي إحداث تشاؤم وذعر في الاندلس خاصة ، تولى الحكم ابن الناصر ، يوسف المستنصر وهو ابن ست عشرة سنة ، فتسلط أعمامه وأشياخ الموحدين على الحكم . وبعد سنة من توليه الحكم قام « مهدي » جديد يدّعي الانتساب للفاطميين بثورة قمعت بعنف . وبين سنة 614 وسنة 617 ساءت الحالة الاقتصادية

---

(1) البيان المغرب 3/213 .
(2) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/109 .
(3) كتاب العبر 6/249 .
(4) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/108 .
(5) البيان المغرب 3/243 .
(6) البيان المغرب 212 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و « اشتدت الحال في تناهي غلاء الأسعار بالبلاد المغربية والاندلسية » بسبب « المحل العظيم والمجاعة[1] . في أثناء هذا الوقت كانت الجهود تبذل في الجانب الاسباني لتوحيد الجهود[2] بينما كان أعمام المستنصر يتنازعون حكم ولايات الأندلس ويثيرون حفيظة أهلها . وقد توفي المستنصر شاباً سنة 620 هـ وبوفاته بدأت تظهر حركات الانفصال بين المغرب والأندلس على أيدي أمراء الموحدين أنفسهم أول الأمر ثم على يد زعماء الأندلس فقد تولى الأمر بعده بمراكش عم أبيه عبد الواحد (المخلوع) الذي نازعه الحكم في الأندلس أمير موحّدي آخر هو عبد الله الملقب بالعادل . ولكن الانشقاق تسرب الى الأندلس أيضاً وبين الموحدين أنفسهم إذ رفض السيد أبو زيد بن محمد صاحب بلنسية مبايعة العادل .

ومع كثرة حوادث الانشقاق انتشرت الدسائس بين المتنافسين ، فخلع عبد الواحد وخنق بعد بضعة شهور من توليه ، واستطاع العادل بعد جهد نيل بيعة مراكش والأندلس سنة 622[3] . إلا أن الوضع أخذ يزداد سوءاً بتجرؤ ولاة الموحدين على الخروج عن سيادة الدولة والتحالف مع اسبانيا علناً .

ففي سنة 623 خلع عبد الله البياسي والي قرطبة « دعوة العادل وخرج عن طاعة الموحدين واستعان بالنصارى عليهم ودلهم على عورات تلك البلاد وأدخلهم قيجاطة . . (و) حصن باجة ولوشة وغيرهما من الحصون » ثم حاصر أشبيلية عاصمة الأندلس حينئذ فقاومه أبو العلاء أخو العادل وهزمه[4] . غير أن أبا العلاء هذا الذي لقب بالمأمون عاد فخلع أخاه وطلب البيعة لنفسه بينما كان أخوه يستعد لمحاربة بعض قبائل العرب في المغرب . وفي أثناء هذا الاستعداد اختلف مع أشياخ الموحدين الذين هجموا عليه في القصر وقتلوه وكتبوا الى أخية المأمون بالبيعة ، وكان ذلك

---

(1) البيان المغرب 243 ـ 245 .

(2) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/154 .

(3) البيان المغرب 3/247 ـ 249 .

(4) المصدر السابق 249 ـ 250 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة 624[1] . وقد كان المأمون يقيم والياً في أشبيلية فتم له الأمر فيها وبايعته أيضاً سائر المدن الأندلسية في بادىء الأمر .

وما أن أطلت سنة 625 حتى ازداد الموقف سوءاً من كافة نواحيه : فقد وقع الخليفة الجديد بين نارين : نكث أشياخ الموحدين بمراكش بيعته وولوا يحيى بن الناصر، كما ثارت الأندلس ضده في شخص زعيمها الجديد محمد بن يوسف بن هود الذي أشعل الثورة من مرسية وأعلن الولاء للعباسيين وكان شعاره تخليص الأندلس من الموحدين والاسبان معاً . وعلى أثر ذلك شهدت الأندلس حروباً أهلية متتابعة بين كل من المأمون وابن هود وزعماء الامارات الاندلسية الآخرين الذين كانوا يغيرون ولاءهم تبعاً للظروف . وبالرغم من أن المأمون استطاع أن يهزم جيش ابن هود[2] فإنه لم يتمكن من القضاء على إمارته . بل إن سلطان المأمون انحصر في أشبيلية وأخذ سلطان ابن هود يتوسع ليشمل المرية وغرناطة وقد ساعد ابن هود في ذلك شعور الاندلسيين المعادي للموحدين الذين قتلوا أو نفوا عن كل بلد في الاندلس[3] . إزاء هذا الظرف الحرج ، وبالنظر لتدهور الأوضاع في مراكش غادر المأمون أشبيلية ـ آخر معقل للموحدين ـ وعاد الى المغرب ليقاوم منافسه يحيى بن الناصر ويتبع سياسة إرهابية عنيفة تقوم على إضعاف سلطة أشياخ الموحدين والتحالف مع الامارات الاسبانية وتغيير بعض الأسس العقيدية للدولة كالتبرؤ من المهدي[4] . وهكذا يبقي الاندلسيون في العشرين سنة الأخيرة من هذه الحقبة بين 626 و 646 هـ وحيدين في الميدان تمزقهم خلافات داخلية ويدفعهم الزحف الاسباني بالتدريج نحو أقصى الجنوب دون أن يجدوا مساعدة حقيقية من جيرانهم المنشغلين بأنفسهم اللهم إلا بعض النجدات المتقطعة القليلة من مراكش وتونس .

---

(1) البيان المغرب 252 ـ 253 .

(2) المصدر السابق 3/258 .

(3) المصدر السابق 269 .

(4) المصدر السابق 275 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي أثناء تلك الفترة الأخيرة ارتسمت ملامح الوضع السياسي حسب الصورة التالية :

اولاً ـ على الصعيد الإسلامي كانت هناك أربعة كيانات سياسية منفصلة :

أ ـ الدولة الموحدية الهرمة التي ستنحصر في المغرب ليستمر فيها الصراع بين الأمراء وليسيطر عليها أشياخ الموحدين سيطرة تامة مع استمرار شيء من نفوذ أمرائها في منطقة أشبيلية .

ب ـ الامارة الحفصية في تونس التي أسسها يحيى بن أبي حفص ، أحد قادة الموحدين القدامى وهو الذي ساعد الدولة في القضاء على نفوذ بني غانية في تونس . وقد ظهرت هذه الامارة رسميا سنة 627 حيث بويع الأمير يحيى بيعة عامة[1] .

ج ـ إمارة ابن هود التي ظهرت سنة 626 وانتهت بوفاته سنة 635 . وقد تمركزت هذه الامارة في منطقة وسط الأندلس وجنوبيها في المنطقة الواقعة بين المرية وغرناطة وقرطبة والجزيرة الخضراء ووصلت في امتدادها حتى أسوار بلنسية .

د ـ إمارة بلنسية وتوابعها في شرق الأندلس ، وقد أكدت استقلالها بثورتها على الموحدين تحت قيادة زيان بن مردنيش ومقاومتها لنفوذ ابن هود. إلا أنها اضطرت تحت تهديد الغزو الاسباني الى طلب العون من تونس وتقديم البيعة لأميرها الحفصي[2] .

ثانياً ـ أما على الصعيد الاسباني فقد كانت هنالك خمس ممالك أقواها وأوسعها مملكتا أرجوان وقشتالة . ولم تكن تلك الممالك قوة واحدة تعمل لهدف محدد فقد كان ملوكها يتنازعون فيما بينهم على المقاطعات

---

(1) البيان المغرب 3/275 .

(2) كتاب العبر 6/283 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسبانية كما كانوا يتنافسون في مجال استخلاص المدن الاندلسية من أيدي المسلمين إذ كان كل ملك يطمح في الإستيلاء على أكبر عدد ممكن من تلك المدن . إلا أنه نظراً لأسباب جغرافية تتعلق بمواقع تلك الممالك اهتمت قشتالة بمدن الوسط والجنوب بينما ركزت أرجوان همها على مدن الشرق وتطلعت البرتغال صوب المقاطعات الغربية . ومن أهم الأحداث في هذه الفترة ـ على الصعيد الاسباني ـ اتحاد مملكتي قشتالة وليون ، هذا الاتحاد الذي يعتبر « الحجر الأساسي للفتوحات العظيمة التي قام بها فرديناند في الأندلس[1] » .

والواقع أن الصراع المباشر سيكون الآن بين إمارة ابن هود ومن سيخلفها من أمراء الأندلس من جهة وبين الممالك الاسبانية الغازية من جهة أخرى وحتى الأمراء الموحدين في أشبيلية سيكافحون باعتبارهم زعماء محليين لا بوصفهم ممثلين للدولة المغربية .

وقد تطورت الأحداث خلال هذه العشرين سنة الأخيرة حسب الصورة التالية :

اولاً ـ مع رحيل المأمون الموحدي سنة 626 الى المغرب قوي نفوذ ابن هود المتوكل وأصبح القوة الأندلسية الأولى . حتى إن أهالي أشبيلية خلعوا طاعة الموحدين وبايعوا ابن هود [2]، الذي أعد جيشاً ضخماً في السنة التالية لمحاربة الاسبان في ماردة ، إلا أنه هزم في هذه المعركة التي تعتبر أول غزواته وأضخمها[3]، وفي سنة 629 توفي المأمون الذي كان يدّعي السيادة الاسمية على الأندلس ، ومع أنه « لم يبق للموحدين بالأندلس أمر ولا نهي [4] » في السنوات القليلة التي سبقت ذلك ، فان وفاته قوّت من مكانة ابن هود ، الذي وصلته الخلعة العباسية بالتولية في السنة

---

(1) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : 2/149 ـ 150 .

(2) البيان المغرب 3/270 .

(3) البيان المغرب 3/270 .

(4) روض القرطاس 182 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذاتها . و« استقامت أحواله ، وولى العهد لابنه الواثق بالله فوفدت عليه البيعات من كل البلاد من جزيرة شقر الى الجزيرة الخضراء[1] » . غير ان استقامة الأحوال ليست من طبع تلك الفترة فبعد بضعة شهور ثار العامة في أشبيلية ضد والي ابن هود وولوا عليهم أحد زعمائهم وهو الباجفي . وفي الوقت ذاته ظهر زعيم أندلسي جديد هو محمد بن يوسف بن الأحمر والذي بويع في أرجونه ومد نفوذه الى جيان وقرطبة ونازع الباجي على أشبيلية[2] هذا في الوقت الذي كان فيه ابن مردنيش يستقل ببلنسية ويقاوم نفوذ ابن هود . وهكذا وجد الأخير نفسه في صراع مع منافسين داخليين بينما كان توسع الممالك الاسبانية يتقدم باضطراد ملحوظ ، مما أرغمه على عقد صلح مع مملكة قشتالة سنة 620 ودفع جزية لها تقدر بألف دينار في اليوم وذلك ليتفرغ لمقاتلة ابن الأحمر والباجي[3] اللذين انتهى صراعهما على أشبيلية بعودتها ثانية الى ابن هود سنة 632 . وقد أراد ابن هود مواصلة بسط نفوذه على ما تبقى من الاندلس فقصد في السنة ذاتها مدينة لبلة وأحكم حولها الحصار . ولكن توغل مملكة قشتالة في أراضيه أجبره على رفع الحصار ومفاوضة ملك قشتالة على الصلح والجزية ، فتم عقد هدنة جديدة تتراوح مدتها بين ثلاث الى أربع سنوات على أن يدفع ابن هود أربع مئة ألف دينار في السنة ، غير أن هذه المعاهدة لم يطل أمدها اكثر من سنة[4] .

ثانياً ـ بعد أن وصل وضع الأندلس الى هذه الدرجة من الضعف واضطر أقوى أمرائها الى دفع الجزية للاسبان اتخذ التوسع الاسباني صبغة جديدة حاسمة . أذ لم يعد الاسبان يكتفون بالمال أو بالاستيلاء على الحصون الجانبية بل أخذوا يتطلعون نحو قواعد الأندلس الكبرى .

وهكذا ما إن جاءت سنة 633 حتى أصبحت قرطبة تحت رحمة

---

(1) البيان المغرب 3/278 .
(2) البيان المغرب 3/279 .
(3) روض القرطاس 183 .
(4) البيان المغرب 3/322 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قشتالة وبلنسية تحت رحمة أراجون . وأصبحت قوة ابن هود ـ بالاضافة الى تمزقها الداخلي ـ موزعة بين الجبهتين المتباعدتين غير أنه ترك قرطبة لمصيرها واتجه صوب الشرق الأندلسي على أمل أن يتمكن من ضمه الى إماراته . ولم تطل مقاومة قرطبة إذ سقطت في السنة ذاتها[1] وفي تلك السنة اشتد حصار ملك أراجون لبلنسية ومنطقة الشرق الاندلسي ، فكانت له سبع محلات لحصار المسلمين اثنتان منها على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة[2] » .

في هذه الأثناء جاءت وفاة ابن هود سنة 635 في ظروف غامضة لتزيد الأمر تعقيداً ولتمزق إمارته المضطربة بين أقاربه وقواده . ولم تبق من تجمعات الأندلسيين الثابتة نوعاً إلا منطقة أشبيلية ، ومنطقة غرناطة التي حكمها ابن الأحمر ومهد فيها لاقامة إمارته التي ستبقى بعد هذه الأحداث ما يقارب قرناً ونصف قرن . أما بلنسية فقد سقطت في يد ملك أراجون سنة 636 بعد حصار ومجاعة . ولم تجد نفعاً نجدة أبي زكريا الحفصي الذي استغاث به البلنسيون وبايعوه واستمر الزحف الاسباني في شرق الاندلس حتى أجلى عنه العرب نهائياً حوالي سنة 644[4] .

وفي تلك السنة ذاتها بدأت الخطط القشتالية الأخيرة للاستيلاء على أشبيلية . وكان أهاليها في ذلك الوقت قد اختاروا الأمير أبا عبد الله بن أبي العلاء الموحدي والياً عليهم . بدأ الزحف القشتالي ببث الرعب في المناطق المحيطة بأشبيلية مما حدا بالسكان الى التسليم دون مقاومة ، وكان ابن الأحمر والي غرناطة الذي أصبح حليفاً لقشتالة ينصح الاندلسيين بالتسليم حقنا للدماء . وقد تمكن القشتاليون من تحطيم أسطول استقدمه أمير الموحدين من المغرب لتأمين الحماية البحرية . وبعد حصار شاق سلم

---

(1) البيان المغرب 3/322 ـ 323 .
(2) كتاب العبر 6/283 .
(3) البيان المغرب 3/258 .
(4) كتاب العبر 6/285 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاشبيليون على أن تصان دماؤهم وأموالهم ويسمح لهم بالهجرة ، وكان ذلك سنة 646[1] .

ومع نهاية النصف الأول من القرن السابع عادت الأندلس أسبانية ما عدا إمارة بني الأحمر في غرناطة التي أصبحت مقر التجمع الأخير لعرب الأندلس والتي ستحيى ، رغم مركزها الفريد الحرج ، آخر فترة من فترات العطاء الحضاري في تاريخ الاندلس العربية .

4 ـ المجتمع والثقافة في الاندلس خلال هذه الفترة .

تمت الإشارة الى أن مجتمع الأندلس في هذه الفترة كان مجتمع اضطراب واختلال ، وتقلبات سريعة وتناقضات حادة . وسنتأمل الآن في أهم ظواهره الاجتماعية والنفسية والخلقية ولعله من الخير أن نتنبه الى أن بذور القلق والتقلب في المجتمع الاندلسي وجدت لها تربة خصبة في فترات سابقة متتالية كعهد الفتنة البربرية وعصر الطوائف الذي أعقبه[2] ، بل ربما كان القلق والتقلب ظاهرة نفسية داخلية في المجتمع الاندلسي نشأت منذ انهيار السلطان الاندلسي الرادع القوي بانتهاء حكم الاموية الموحدة واختها العامرية ، وأخذت تظهر بوضوح عندما تفقد الاندلس ضابطاً قوياً يتولى أمرها وتختفي تحت السطح عندما يأتي للاندلس حكم قوي كحكم المرابطين أو الموحدين .

من أهم الظواهر البارزة في هذه الفترة ظاهرة شيوع الخوف وعدم الاستقرار واختلال المقاييس واهتزاز الحدود الفارقة . وكان الخوف يتجلى على هيئة قلق تجاه المستقبل وكانت المعارك والحروب الدائرة بين

---

(1) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 2/195 ـ 199 .

(2) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) : 176 ـ 177 وكذلك (عصر الطوائف والمرابطين) : 32 ـ 44 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأندلسيين والاسبان تتسم بالتأثير العميق في نفسية المجتمع الاندلسي الذي لم يكن ينظر الى تلك الحروب باعتبارها نشاطاً عسكرياً عادياً أو فتوحات خارجية بقدر ما هي حياة ومصير . وهكذا وجدت تلك الأحداث صدى قوياً في الشعر الأندلسي منذ أن بدا خطرها واضحاً للعيان[1] حتى اللحظة الأخيرة في حياة الاندلس العربية . وفي هذه الحقبة التي نتحدث عنها سنجد نماذج عديدة من أشعار التفجع والاستغاثة والتشكي من الغربة كقصيدة أبي البقاء الرندي المشهورة التي غدت سجلاً لحوادث النكبة من بعده : (لكل شيء إذا ما تم نقصان . . .) وسينية ابن الابار التي عبرت عن استغاثة أهالي شرق الأندلس بأمير تونس (أدرك بخيلك ، خيل الله أندلسا . .) ، وكذلك سنجد في شعر ابن سعيد نفسه ظاهرة الشعور بالغربة بارزة حتى أثناء إقامته في وطنه[2] . وغني عن البيان ان بروز هذه الظاهرة في الشعر بشكل واضح يدل على أن المجتمع كله كان يعاني منها . غير أن هذه الظاهرة لم تسحب ظلالها على الشعر فحسب بل عكست نفسها في قلق نفسي واجتماعي عام يمكن تلمّس آثاره في الكثير من الحالات الاجتماعية والفردية .

كان هناك جو من عدم الاستقرار يشمل نواحي الفكر والمعتقد ، كما يتناول حياة الناس في خطوط سيرها ، كما يتمثل في التغيرات المعتادة من تعاقب أنظمة الحكم وتغير حظوظ الأفراد في كدهم المعيشي . أما فيما يختص بتغير الحكام فهذا ما اتضح بجلاء في حديثنا عن الوضع السياسي ، حتى أن مدينة كأشبيلية تغير حكامها في سنتين أربع مرات بين الموحدين وابن هود والباجي وابن الأحمر . ومن الطريف هنا أن نلاحظ أن ابن سعيد ، الذي كان همه الأول النشاط التصنيفي ، تأثر بهذه الأحداث واضطر أن يغير ولاءه بسرعة بين المتنافسين حتى أنه مدح الباجي عندما أبعد ابن هود عن أشبيلية ، مع العلم أن ابن هود قد عين والده والياً على

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 177 ـ 192 .
(2) المقري ، نفح الطيب 3/25 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزيرة الخضراء ، وكان هو نفسه يستظل بظله[1] ، وسرعان ما اضطر ابن سعيد لتغيير ولائه ثانية عندما خضعت أشبيلية لابن الأحمر الذي قتل الباجي ، فعاد ومدح قاتل ممدوحه السابق[2] ، ولم يقف التذبذب عند هذا الحد بل ناول جانب العقيدة ، فقد قام اثنان من كبار أمراء الموحدين هما البياسي صاحب قرطبة وأبو زيد صاحب بلنسية باعتناق النصرانية[3] في سبيل العودة الى الحكم ، وعمل كهذا ليس ظاهرة عادية في مجتمعات العصر الوسيط الدينية ثم ان هاتين الحادثتين على صعيد الأمراء ذوي الصبغة الدينية توحيان بأن هناك جواً اجتماعياً يمكنه أن يتقبل ذلك ، وأن هناك أفراداً من سائر الطبقات سلكوا الطريق ذاته . وقد رأينا ـ من ناحية أخرى ـ كيف أن الدولة الموحدية ثارت على مؤسسها ونبذته في عهد المأمون ، ثم جاء أمير بعده ليحاول العودة الى تعاليم المهدي ثانية .

ومن مظاهر انعدام الاستقرار في حياة الأفراد ، كثرة الوشايات التي لا تدعهم يستقرون في منصب معين ، بل ان الوشايات أحيانا تؤدي الى هلاك من توجه ضدهم . ولعل في مصنفات ابن سعيد شواهد كثيرة على ذلك عكست نفسها بوضوح في حياته وحياة من ترجم لهم . فهذا هو الأفلح اللخمي يسعى لوالد ابن سعيد عند ابن هود ليوليه إمرة الجزيرة الخضراء ثم لا تلبث الوشايات أن توعز صدره فيسعى في تأخيره[4] وهذا سهل بن مالك الرئيس العالم يغربه ابن هود عن وطنه غرناطة بسبب تضخيم أهل « الحسد والعداوة » لاقواله[5] وهذا أبو بكر ابن البناء الأشبيلي يظهر أمام الناس متواضعاً قانعاً وهو في حقيقته « أهون ما عنده أن يسعى في سفك دم إنسان ، تخاصم مع وكيل له في شبر من أرض »[6] .

ومن الظواهر المرتبطة بذلك ظاهرة بروز المغامرين على مسرح

---

(1) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب 2/103 .
(2) البيان المغرب 3/270 .
(4) القدح 142 .
(5) القدح 61 .
(6) القدح 118 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاحداث وقفزهم من أدنى الدرجات الى رتبة الامارة والقيادة في برهة زمنية وجيزة . والواقع ان ابن هود نفسه كان في طليعة هؤلاء المغامرين الذين عرفوا كيف تنتهز الفرص . ويجمع المورخون أن ابن هود ، رغم انتسابه الى بني هود ملوك سرقسطة السابقين ، رجل عامي جاهل أقام ملكه على أكتاف المغامرين من أمثاله . فابن عذارى ينسب انتصاره الى زعيم عصابة يدعى الغشتي تحالف معه . وكان أتباع الغشتي « جماعة كبيرة من أراذل الناس السفلة . . فكان يقطع بهم الطرقات والنواحي ، فاكتسحوا ما فيها من البقر والأسرى[1] » . وبتأييد من هؤلاء أصبح ابن هود أمير المسلمين وغدا الغشتي قائد الأساطيل في الدولة المتوكلية . ويحدثنا ابن سعيد وهو المؤرخ الأندلسي المعتدل ، ان ابن هود كان « عامياً جاهلاً ، مشؤوماً على الأندلس ، كأنما كان عقوبة لأهلها . . . وولى قرابته الأرذلين بين شعار ، وخباز ، وقيم حمام ، ومناد ، على ممالك الأندلس ، فقضى ذلك بتشتيت شملها[2] » .

وكما جاءت بداية ابن هود رمزاً على المغامرة والانتهازية ، جاءت نهايته لتعكس ما في العصر من غدر ودس . فعندما مر بالمرية في طريقه الى الشرق الأندلسي ، استقبله وزيره ابن الرميمي أحسن استقبال في قصره ، ثم « قتله بالليل غيلة . . . وقد نقب نقباً في قصره[3] » .

وقد أدى هذا الإختلال في الحياة العامة وعلاقات الناس ببعضهم إلى طلب « تعويض » والبحث عن « هروب » من واقع تلك الحياة القلقة القاسية . فكان طبيعياً الميل إلى حياة الترف وحياة اللذة . وتمثل الترف في الميل إلى الزخرف والشكل البراق سواء أكان ذلك في الفنون المعمارية ، التي ازدحمت بها هذه الفترة والفترة التي سبقت أو في المسكن والملبس . . . أو في الألقاب والتخاطب . . أو في الرسائل والأدب شعراً

---

(1) البيان المغرب 3/256 .

(2) المغرب 2/251 ـ 252 .

(3) المغرب 252 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونثراً عامة . ولا يقتصر ذلك على طبقة الأمراء وحدهم ، بل يتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ومتوسطي الحال ، فهذا أبو القاسم بن حسان الأشبيلي ينشىء له قصراً « يشتهر فيما بين المنازه والديار منزهه وداره ، إذا قيل قصر ابن حسان فلا يشاركه في هذا الوصف إلّا ما كان منزلاً للسلطان ، ودخلت إليه مع والدي . . فسافرت أبصارنا في تلك الساحة العريضة الطويلة ، وتقيدت بمحاسن رياضه البديعة الجميلة ، وكذلك إذا قيل في المنازه التي على النهر منزه بيسانه ، مال كل ذي سمع وبصر إلى ألحان أطياره وأفنان أشجاره المزدانة[1] . وهذا أبو القاسم عبد الرحمن العثماني السبتي تصبح « شهرته » الرفاهية و « له في ذلك حكايات محفوظة منها أنه كانت له ثياب النزهة ، وثياب الحمام ، وثياب العرس وما أشبه ذلك ، لكل حالة ما يليق بها لا يخل بشيء منها . واحتاج يوما إلى شيء ضروري فحضر السائس ولم يحضر المتصرف فلم يقدر على أن يصرف السائس . وكان يقول : لا سبيل إلى وضع شيء في غير محله حتى كان ينسب ذلك للهوس ، وبالجملة فكان من الخواص في كل ما تلبس به[2] » .

هذان مثلان : أحدهما من أشبيلية والآخر من سبتة . ومن البين أن هذه النماذج الفردية ما كان لها أن تبرز بهذا الشكل لو لم يكن في البيئة الإجتماعية كلها ما يشجع على ذلك .

وإلى جانب ظاهرة الترف والتأنق ، نلحظ ظاهرة الميل الغلماني التي تغلغلت في أوساط العامة والخاصة حتى اشتهر بها وزراء وكتاب وشعراء . . . بل وفقهاء . . ومصنفات ابن سعيد وحدها تكفي لإقناعنا بانتشار هذه الظاهرة التي يبدو أنها انحراف في اللذة وتنويع لها أكثر مما هي مجرد تنفيس عن شهوة حبيسة . ولو عددنا الشواهد الكثيرة على انتشارها في هذه الفترة لتجاوزنا الحد المرسوم لهذه المقدمة الموجزة . والرجوع إلى ما صنفه ابن سعيد من تراجم هو الذي يعطي صورة كاملة ودقيقة عن هذه

---

(1) القدح 148 .

(2) القدح 196 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظاهرة المتفشية[1] .

ومن صور الإضطراب في هذا العصر التدهور الاقتصادي واضطراب الحالة المعيشية عند عامة الناس ، فقد أدت الغارات إلى أن « اشتد الضرر بالأرض ومن عليها » ولحق الأذى بـ « المترددين في طرقاتهم لتجاراتهم[2]» كما افتتحت هذه الحقبة بقحط أدى إلى ارتفاع الأسعار وسبب مجاعة . هذا بالإضافة إلى ما تسببه الحروب من تدمير للمزروعات وما تستهلكه من نفقات . ومما لا شك فيه أن المبالغ الضخمة التي دفعها ابن هود وغيره من أمراء الأندلس جزية للاسبان قد جمعت من الزراع والتجار الذين أنضبت مواردهم الفتن الداخلية والحروب . وهذا الإضطراب الإقتصادي من شأنه ـ طبعاً ـ إحداث اختلال في العلاقات الإجتماعية ودفع الناس إلى الهجرة أو الخروج على القانون كما كانت تفعل عصابات الغشتى وابن هود .

ومن أخطر الظواهر البارزة على صعيد المجتمع في هذا العصر عودة ظاهرة « الجلاء » التي كانت ملحوظة في المجتمع الأندلسي في حقبة سابقة[3] إلى البروز والتأثير بشكل جذري أعمق وأخطر من ذي قبل . ففي بداية هذه الحقبة أخذت الجماعات الأندلسية تنتقل من منطقة إلى أخرى تبعاً للظروف الحربية والإقتصادية ، ومع سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ـ في نهايتها ـ اضطرت جموع الأندلسيين إلى الهجرة جنوباً حتى غادرت الأندلس نهائياً ـ عدا الجماعات التي تحصنت في منطقة غرناطة . وهكذا تغير الوجه البشري ـ الحضاري لجنوب اسبانيا بحلول الاسبان محل العرب الذين كانوا أرقى حضارة منهم . وهنا تجدر الإشارة إلى أن العلاقات العربية ـ الاسبانية كانت تتسم بالعداء والعنف في هذه الحقبة نظراً للصراع المصيري القائم بين الطرفين . أما مسألة التأثير والتأثر فمسألة يحسن

---

(1) انظر الغصون 13 ، 45 ، 46 ، 140 ، 141 ، وكذلك القدح 8 ، 9 ، 61 ، 77 ، 82 ، 91 ، 92 ، 95 ، 96 .

(2) البيان المغرب 3/256 .

(3) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 32 ـ 33 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإلتفات إليها إلا أنها خارج نطاق بحثنا هذا . وإذا كانت اسبانيا وأوروبا قد فقدتا جماعة من أنشط الجماعات في القرون الوسطى ، فإن شمال افريقيا وتونس بالذات قد غنما أذكى عناصر تلك الجماعة حيث تطعمت الدولة الحفصية الناشئة في تونس بالمثقفين والمهنيين الأندلسيين . ولنا أن نتصور أن كثيراً من مميزات الطابع الأندلسي قد انتقل مع اولئك الى المجتمع التونسي .

نأتي الآن إلى التساؤل الأهم : ماذا كانت ردة فعل الأوساط الثقافية الأندلسية إزاء هذا الوضع الحرج الذي انتهى بكارثة ؟

يمكننا في هذا المجال الإشارة إلى ثلاثة نماذج من ردات الفعل عند رجال الثقافة . النموذج الأول هو موقف التفاعل القوي المباشر من الأحداث بحيث يواجه المثقف او العالم ظروف الموقف مواجهة يومية ويترك عمله العلمي اما ايمانا منه بضرورة العمل الوطني والديني واما رغبة منه في الإستفادة الشخصية من اختلال سير الامور . يمثل هذا الموقف عالم في الحديث مثل أبي الربيع بن سالم الكلاعي الذي ترك التدريس في بلنسيه ليقاتل حول حدودها ويستشهد بعد أن أحس بخطر الغزو الداهم ، وعالم زاهد آخر هو أبو بكر عزيز بن خطاب الذي كان معروفاً « بشعار الزهد والعلماء » في مرسية ثم انتقل فجأة إلى « زي أصحاب السيوف . . . وسفك الدماء » حيث تولى حكماً قصيراً مضطرباً فيها دفع حياته ثمناً له .

أما النموذج الثاني فموقف من يساير الأحداث ويرتبط بها ولكنه يظل محافظاً على نشاطه العلمي ولا يسمح لارتباطه بالأحداث أن يغرقه فيها بل يراقب الموقف بحذر حتى إذا تحرج لدرجة الخطر الشديد تركه وهاجر من وطنه . يمثل هذا الموقف أصدق تمثيل ابن الابار ، المصنف البلنسي الكبير ، الذي كتب لأبي زيد بن أبي حفص والي بلنسية ثم تركه عندما لجأ إلى الأراجونيين وتنصر ، وعاد إلى أمير بلده الجديد ابن مردنيش وذهب سفيراً عنه إلى تونس إبان محنة بلنسية . . . . ولكن عندما سقطت بلنسية وأخذ ابن مردنيش يغامر في سبيل السلطة في المدن المتبقية من شرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأندلس تركه ولجأ الى تونس ليبدأ حياة جديدة في ظل الحفصيين[1] . وأما النموذج الثالث فموقف من ينصرف إلى نشاطه العلمي انصرافاً كلياً ويظل يراقب الأحداث من بعيد . أفضل مثل على ذلك صاحبنا ابن سعيد نفسه فبالرغم من أن أباه وأجداده تولوا الإمارة وشغلوا مناصب سياسية ، نجده لا يلتفت الى ذلك ، وبينما كان الاندلسيون يصارعون أنفسهم ويناضلون ضد الموحدين والاسبان في عهد ابن هود كان ابن سعيد يجول المدن الأندلسية مسجلاً مادته العلمية لكتاب المغرب لا يعنيه من أمر الحوادث شيء ، وقد غادر الأندلس نهائياً سنة 636 ، أي قبل سقوط بلده أشبيلية بعشر سنين[2] . مثل آخر على ذلك : أحمد بن مفرج الأشبيلي المعروف بابن الرومية الذي وهب حياته لعلم الحديث والنبات ورفض الإشتراك في تبعات الحكم أو الوظيفة[3] .

ومهما كانت المواقف المتخذة ، فإن الحركة الثقافية في هذا العصر كانت نشطة خصبة . رغم الحوادث الجسام والقلق والاضطراب ، بل ربما كان لتلك الأحداث فضل في تنبيه الأذهان وتعميق الحس التاريخي والوعي العقلي عند المثقفين خاصة . وقد سبق هذه الفترة ـ كما اتضح ـ الشطر الأول المستقر المزدهر من عهد الموحدين حيث أتيح للثقافة الأندلسية في جو من الأمن والدعة مواصلة مسيرتها في ظل تفهم أمراء الموحدين وتعاطفهم وتشجيعهم الفعلي في أكثر الأحيان مع ما عرف عن العهد الموحدي من إنشاء معاهد العلم ورعايتها والإشراف على الطلاب والحفّاظ وإعالتهم . وإذا كان من أثر للعهد الموحدي الأول على الثقافة الأندلسية فهو توجيهه لبعض فروع العلم كعلوم الدين ووقوفه أحياناً في وجه علوم أخرى كالفلسفة .

ثم تأتي حقبة التحول والاضطراب هذه ، ويتلاشى السلم

---

(1) القدح 191 .

(2) راجع الفصل الخاص بحياته من هذا البحث .

(3) القدح 181 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموحدي ، ولكن الثقافة الاندلسية تحتفظ بالكثير من حيويتها وزخمها وتظل قيم الثقافة محترمة مقدرة باعتبارها قيماً في حد ذاتها . فتستمر المناقشات الفقهية والأدبية والنحوية في معاهد أشبيلية ومدارسها ويواصل الناس إقبالهم عليها للتخرج فيها والتزود من جوها العلمي النشيط . وكان رجال الثقافة يجلّون العلم ويضعونه فوق كل اعتبار ويضحون في سبيله فهذا موسى والد ابن سعيد ، وهو سليل أعرق الأسر الأندلسية نسباً ومكانة وعلماً ، يلاحق الكتب أنى كانت ويسير الى أصحابها مهما اتضعت مكانتهم ـ يوم كان أمير الجزيرة الخضراء ـ رغم ما يجده منهم من جفاء ثم أنه يخبر ولده أن ما ناله من الفوائد العلمية أفضل من الولاية التي نالها في اليوم ذاته[1] .

وكان موسى هذا يقضي أيام أعياده « في جهد عظيم من الكتب » ويجد في ذلك الراحة الحقيقية[2] . ولقد حدثنا ابن سعيد كثيراً عن مكتبات الأفراد الذين ترجم لهم في « القدح المعلى » وما كانت تحويه من فوائد وما كان يبذل في سبيل جمعها من جهد[3] .

وأرى أن كثيراً من المثقفين حاولوا تحدي عصرهم القاسي ومجابهة ظاهرة الفناء والتشتت بمزيد من الأعمال العلمية ـ التي تبقى بعد فناء المال والأهل والوطن ـ تأكيداً للذات والوطن وحرصاً على التراث وأمجاد الرجال الذين أفنتهم صروف الدهر . ولربما استطعنا على ضوء ذلك تفسير ظاهرة كثرة التواريخ والتراجم والسير في هذه الفترة . وان الذي يتصفح كتاب « القدح المعلى » لابن سعيد يشعر بالجو الثقافي المزدهر الذي كان يعيشه الاشبيليون خاصة ، وكأن مدينتهم بعيدة عن الاضطرابات وتهديدات الغزو والإفناء . وان روح التحدي ذاتها هي التي تملي على ابن الابار ـ أفصح متحدث بلسان أهل العلم في هذه الحقبة ـ أن يبدأ بالإعداد لكتاب التكملة

---

(1) النفح 8/162 ـ 163 .

(2) النفح 169 .

(3) القدح 86 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة 631 وكتائب أراجون تقترب من أسوار ولاية بلنسية . وهو يفصح عن ذلك بعبارة تنم عن وعيه بالموقف الخطير : « وكان انبعاثي لهذا التقييد أول شهر المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة . . . . ليعلم انها (الاندلس) ما أفلت أهلتها ، وان أعضلت علتها وبطلت على البرد أدلتها ، ولاهوت نجومها وان أقوت رسومها . . . وما غرب الاسلام فيها وعجز قومها عن تلافيها ، فالعلوم ما صرفت عنها ، ولا عدمت بالجملة منها . . ومصداق ذلك وصل إحسانهم والحبل مبتور ، ونظم جملهم (جميلهم ؟) والشمل منثور . . . [1] » ويبدو أن الكارثة والتشرد قد أثرا سلبياً في هذه الروح المتحدية إذ يخبرنا ابن الابار أن الأحداث التي « ختمت بالمصيبة الكبرى في أشبيلية مصائبها ودهمت بالجلاء المكتوب والرجاء المكذوب عصائبها » جعلته ينقطع عن الكتابة مدة من الزمن متعللاً بما عانى من خطوب ، ولكن إلحاح الأصحاب عليه بالعودة إلى التصنيف ، قبل أن يصيبه مكروه ويضيع ما لديه من علم ، أجبره على إتمام التأليف حفظاً للحقيقة من الضياع ، بعد أن استخار « الله في الإسعاف والإسعاد[2] » وسيستخير الله مع ابن الابار مئات العلماء الأندلسيين الذين سيفاجئهم هول الصدمة في البداية ثم يستفيقون في مهاجرهم الجديدة ليعودوا سيرتهم الاولى .

***

وليس من الممكن في هذه التقدمة الموجزة أن تؤرخ للحركة الثقافية رجالاً وفروعاً وخصائص ومراكز ومذاهب بالتفصيل . إلا أنه لا بد من عرض عام للعلوم الأدبية وعلم الجغرافيا والرحلات على وجه الخصوص نظراً لأن مصنفات ابن سعيد ستنصب في هذين العلمين اساساً .

يبدو شعر هذه الفترة غزيراً متنوعاً ، مصطبغاً بطابع عصره القلق المضطرب والشعر من طبيعته أن يكتسب حدة وحيوية في عصر كهذا . ويبدو شعر هذه الفترة معبراً عن طابعها وروحها عندما يتوزع في موضوعاته

---

(1) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ص 3 .

(2) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ص 4 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين تسجيل الأحداث المتلاحقة ، والنكبات المتتالية من ناحية وبين الإنصباب على وصف مجالس اللهو والغزل الغلماني والخمريات من ناحية أخرى ، وكأنه يعكس واقع مجتمعه الذي يواجه مرارة الحقيقة تارة ويهرب الى اللهو واللذات تارة أخرى . وسيعبر الشعر في هذه الفترة عن مشاعر الغربة خاصة عندما يستقر الشعراء في مهاجرهم الجديدة بعد سقوط مدنهم الأندلسية وسنرى كيف أن هذه الأبعاد ستسحب ظلالها على شعر ابن سعيد نفسه بشكل أو بآخر . وعلى الصعيد الفني سيتجه الشعراء نحو المزيد من الكد الذهني وطلب الصورة البعيدة « الجديدة » كما سيبالغون في اصطناع الأسلوب الرقيق المحمل بالمحسنات البديهية انسجاماً منهم مع « الظاهرة الزخرفية » السائدة في مجتمعهم .

وقد اعتنت المصنفات الأدبية في هذا العصر ـ كمصنفات ابن الابار وابن سعيد ـ عناية فائقة برواية الشعر ، حتى أنها تتبعت الفقهاء والنحويين والمحدثين والنباتيين والفلاسفة والأمراء فيما قالوه من شعر ولو كان لا يتعدى البيتين أو الثلاثة . بل أن المصنف في أغلب الأحيان لا يترجم للعالم إذا لم يكن له شعر . ومن أشهر شعراء هذه الحقبة ابن سهل الاسرائيلي الذي أعاد جو أبي نواس في خمرياته وغلمانياته وامتاز بحدة في الشعور ورقة في التعبير ، وأبو بكر الصابوني وابن حيون الاشبيلي ، وابن زهر الحفيد ، وأبو البقاء الرندي ، وابن الابار ، وابن سعيد . والطابع الغالب على الشعر اتجاه نحو طريقة المحدثين إلا أن بعض الشعراء لأسباب معينة يسيرون على نهج طريقة العرب كبعض قصائد ابن سعيد وكقصائد ابن سهل « الحجازية »[1] غير أن هذه حالات فردية .

وواصل الاندلسيون اهتمامهم بفنهم الشعري الخاص : الموشح ، فأخذ عدد الوشاحين يزداد وتنوعت موضوعات التوشيح ، إلا أن ازدياد العناية بالصنعة اللفظية أفقد الموشح بعض رقته[2] . ومما يدل على ازدياد

---

(1) القدح 8 .

(2) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : 250 ـ 251 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهمية الموشحات في هذا العصر أن ابن سعيد قام بوضع الموشحات جنباً الى جنب مع الشعر الكلاسيكي في مؤلفه الموسوعي الهام « المغرب » وربما كان ذلك لأول مرة في تاريخ التصنيف الأدبي .

أما على صعيد الأعمال النقدية فنذكر كتاب أبي البقاء الرندي « الوافي في نظم القوافي » الذي يمكن اعتباره تعبيراً عن وجهة نظر مذهب المحدثين ، وسنعود الى هذا الكتاب عند الحديث عن النقد عند ابن سعيد . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال « رسالة الشقندي »[1] في المفاضلة بين الاندلس والمغرب التي تتضمن بالإضافة الى تعبيرها عن النزعة الاندلسية وعرضها لعلوم الاندلسيين ، بعض إشارات نقدية . وإذا اعتبرنا مؤلف الرندي ممثلاً لما يمكن تسميته بالنقد المنهجي في هذا العصر ، فإن الرسالة هذه تمثل طابع النقد الذاتي التأثري .

وفي مجال النقد الأدبي قام أبو العباس الشريشي بشرح مقامات الحريري والتعليق عليها . وقد أثار شرح الشريشي اهتماماً كبيراً مما يدل على إعجاب الاندلسيين بفن المقامة . كما شرح مقامات الحريري في هذا العصر محمد أحمد بن سليمان المالقي[2] . أما في فن الرسائل فقد اشتهر أبو المطرف بن عميرة الذي كتب لأمراء بلنسية فالمغرب فتونس . وقد قال عنه ابن سعيد : « شيخ كتاب زماننا وامام أدباء أواننا[3] ، وأسلوبه في النثر كأسلوب معاصريه يقوم على العبارات القصيرة المسجوعة ، وعليه مسحة قوية من التعبير القرآني جاءت من ثقافته الفقهية ، إذ كان قاضياً .

ويحدثنا ابن سعيد عن حركة نحوية قوية شهدها هذا العصر فيقول أن « النحو عندهم (الاندلسيين) في نهاية من علو الطبقة حتى أنهم في هذا العصر كأصحاب عصر الخليل وسيبويه . . . وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنا من علم

---

(1) النفح 4/177 ـ 208 .
(2) السيوطي ، بغية الوعاة ، ص 11 .
(3) القدح 42 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النحو . . . فليس عندهم بمستحق للتمييز[1] « ومن أشهر علماء النحو أبو علي الشلوبيني الذي شرح « الجزولية » و « التوطئة » وكان له صيت ذائع تعدى الاندلس والمغرب وكان الناس يقصدونه في أشبيلية من جميع الأنحاء . واشتهر « باقراء مصنفات الأدب الجليلة » بالإضافة الى شهرته النحوية[2] » ومن معاصري الشلوبيني وتلاميذه أبو الحسن بن عصفور الاشبيلي صاحب كتاب « المغرب » في النحو ، وقد عرف ابن عصفور بأسلوبه التعليمي السهل في التأليف[3] وكذلك يمكن إضافة ابن مالك صاحب « الألفية » في نظم قواعد النحو الى نحويي هذه الحقبة وإن كان قد عمر بعدها (توفي سنة 672) . ويلاحظ أن الجهود النحوية كانت منصبة على الشرح وتبسيط القواعد ونشرها . وربما كان اهتمام العصر بالبراعة اللغوية من أسباب إزدهار هذه الحركة النحوية .

ومع هذه الحركة ظهرت فئة من الأساتذة تقوم باقراء كتب الأدب وشرحها من هذه الطائفة أبو الحسن الدباج[4] ، والأعلم البطليوسي اللذان كانا يعلمان في معاهد اشبيلية ، وقد تتلمذ عليهما ابن سعيد ذاته .

وفي حقل التاريخ الأدبي والتراجم وجمع النصوص الشعرية يبرز ابن سعيد وابن الابار علمين على هذه الحقبة . وستمثل مصنفاتهما كافة الاتجاهات المنهجية التي عرفها فن التصنيف من قبل ، فالحلة السيراء لابن الابار تترجم لشخصيات من الاندلس والمغرب منذ القرون الأولى أي أنها مقيدة مكاناً شاملة زماناً ، وكتاب « التكملة » له يهتم بالاندلسيين خصوصاً في نطاق الزمن الذي وصل إليه ابن بشكوال (578) في « الصلة » وإن كان لا يتقيد بحدود الكتاب الأخير حرفياً . بينما يقوم كتاب « تحفة القادم » على معارضة « زاد المسافر » لصفوان بن ادريس (598) ويختص

---

(1) النفح 1/205 ـ 206 .
(2) القدح 152 .
(3) الغبريني عنوان الدراية ، ص 188 .
(4) القدح 155 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاندلس أيضاً لكنه زمنياً ينحصر فيمن سبق وفاته مولد المؤلف على وجه العموم[1] ، وسنرى عند الحديث عن منهج ابن سعيد في التصنيف كيف أن فن التصنيف الأدبي هذا العصر استفاد من تطور العلوم فأخذ يميل الى الدقة في التقسيم والتبويب بشكل تفصيلي كما يفعل النحاة والفقهاء والمناطقة في تقسيمهم وتبويبهم لفروع علومهم . وسيكون منهج ابن سعيد في تصنيف « المغرب » أفضل مثال على ذلك ، هذا المنهج الذي لو قارناه بمنهج « الأغاني » القائم على تداعي الرواية لأدركنا مدى الفرق الهائل الذي طرأ في حقل التصنيف الأدبي خلال أربعة قرون تقريباً .

أما في نطاق الجغرافية والرحلات ، فإن نشاط هذه الحقبة في الحقلين تأثر بصورة واضحة بالنتاج الجغرافي وجهود الرحالة خلال القرن السادس ، هذا القرن الذي يمكن اعتباره الفترة الذهبية وعصر النضج لعلم الجغرافية والرحلات في الاندلس خاصة والمغرب عامة . ففي النصف الأول من القرن السادس ظهر الشريف الادريسي (+ 493) الذي يعتبره الباحثون من أعلام الجغرافيين العرب ، والذي سيبدي جدة وطرافة في أبحاثة الجغرافية ، فكتابه « نزهة المشتاق » من أهم الكتب التي تمثل ظاهرة الجمع بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية ، وهو يضم مصورات جغرافية لأقسام الأقاليم السبعة وهذه تعتبر من الظواهر الجديدة في الجغرافية العربية . كما أنه في هذا الكتاب اعتمد على مصادر اوروبية اطلع عليها في بلاط مضيفه روجر الثاني ملك صقلية ، بالإضافة إلى مصادره العربية[2] وسنرى عند الحديث عن جغرافية ابن سعيد أن كتاب « نزهة المشتاق » للادريسي واحد من أهم مصارده الجغرافية[3]. أما في النصف الثاني من القرن السادس فقد ظهر الرحالة الشهير ابن جبير (540 ـ 614) الذي وإن كانت رحلته وصفاً للبلاد الشرقية ، فإن انطباعاته وميوله ستترك

---

(1) ابن الأبار ، المقتضب من تحفة القادم ، ص « ي » .

(2) انظر مادة « جغرافيا » في الموسوعة الإسلامية ـ ح 7 ص 26 (الترجمة العربية) .

(3) انظر فصل « ابن سعيد الرحالة الجغرافي » من هذا البحث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أثرها عند قرائه المغاربة وخاصة المهتمين بالرحلة منهم . وسنجد أن ابن سعيد في تسجيله لمشاهد بعض رحلاته سيهتم بالنواحي الاقتصادية والثقافية كما فعل ابن جبير في رحلته من قبله .

ومن رجال الجغرافية والرحلة في المغرب ابن فاطمة الذي يكتنفه شيء من الغموض ، ولولا ما نقله عنه ابن سعيد من معلومات جغرافية تتعلق بغرب افريقيا ووسطها لما أمكن التعرف الى طبيعة جهوده[1] والراجح أنه قام برحلة بحرية جنوبي مراكش وربما وصل الى ساحل الذهب على الساحل الافريقي الغربي[2] .

وقد تعمق الحس الجغرافي في الأندلس مع نشوء دول الطوائف في المدن الاندلسية المختلفة حيث أخذت كل مدينة تفتخر على الأخرى بما لها من حسنات ، وازداد هذا الحس عمقاً عندما بدأ الاحتكام قوياً بين الأندلس والمغرب عهدي المرابطين والموحدين . ويعتبر العصر الموحدي عامة عصر ازدهار للنشاط الجغرافي خصوصاً فيما يتعلق بأفريقيا حيث توسعت الدولة الموحدية في أفريقيا الغربية ، كما يذهب بعض الباحثين الى أن المغاربة قاموا باكتشاف منابع النيل في هذا العهد[3] .

ومن أهم الخصائص التي تميز بها التأليف الجغرافي في عصر ابن سعيد امتزاج الجغرافيا بالتاريخ والأدب . من دلائل ذلك كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشي (- 621) الذي مزج بين الجغرافية والتاريخ . وكتاب ياقوت « معجم البلدان » حيث امتزجت الجغرافيا بالتاريخ بالأدب ، وكتاب « المغرب » لصاحبنا ابن سعيد نفسه الذي ارتبط في ذهنه التصنيف الأدبي بالتصور الجغرافي . ومن الخصائص الملحوظة أيضاً نقل معارف السابقين وتنظيمها وتبويبها بعد صياغتها في أسلوب أدبي ـ والميل الى ذكر

---

(1) ابن سعيد ، بسط الأرض في الطول والعرض ص 14 ، 36 .

(2) زكي حسن ، الرحالة والمسلمون في القرون الوسطى ، ص 122 .

(3) محمد المنوفي ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 93 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العجائب والخوارق[1] .

وإتماماً لهذه الصورة الموجزة يجمل بنا الإشارة الى أهم الأسماء في نواحي المعرفة الأخرى . ففي علم الحديث إشتهر خلال هذه الحقبة ابن القطان الكتامي المعافري (- 627) وأبو الربيع الكلاعي البلنسي (- 633) الذي يعتبر عالم العصر الأول في الحديث ، وابن الرومية (631) الذي عرف بميله الى المذهب الظاهري .

وفي حقل التصوف برز اسم ابن عربي (- 638) وتلميذه ابن سبهين (- 669) ويلاحظ ان الاثنين أمضيا الشطر الثاني من حياتهما في المشرق .

أما في علم النبات فنشير الى ابن الرومية سابق الذكر الذي قام برحلة علمية الى المشرق لدراسة النبات ثم عاد الى أشبيلية . ونخص بالذكر ابن البيطار العالم النباتي الشهير (645) الذي رحل الى المشرق أيضاً وتوفي في دمشق ، وكتابه « الجامع » من المصادر العلمية الهامة في القرون الوسطى .

5 ـ أهم المراكز العلمية في هذا العصر

أما فيما يختص بمراكز العلم ، فإننا نرى أشبيلية تحافظ على مكانتها الى ما بعد منتصف هذه الحقبة (أي حوالي 635) مواصلة دورها الذي اضطلعت به منذ العهد الموحدي الأول .

ولقد امتازت أشبيلية بكثرة معاهدها وإقبال الطلاب عليها من سائر أنحاء الأندلس ـ وكذلك المغرب ـ للدراسة فيها . وتوجه رجال العلم نحوها لاظهار علمهم ونبوغهم . وأكثر مصنفي هذه الفترة وعلمائها وفقهائها وشعرائها أشبيليون : أصلاً أو إقامة . وسنخص جو أشبيلية بشيء من التفصيل بعد قليل مكتفين هنا بالإشارة الى كونها المركز الأعظم للثقافة في هذا العصر .

---

(1) انظر مادة « جغرافيا » في الموسوعة الإسلامية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع اقتراب سقوط أشبيلية وبقية الاندلس ، كانت الظروف تعد تونس لترث مكانة أشبيلية ولتصبح أهم مركز ثقافي في الشمال الأفريقي . ففي ظل الحكم الحفصي ، أكثر النظم إستقراراً في المنطقة عندئذ ، أخذ الأندلسيون يتوافدون عليها بكثرة حاملين معهم خزائنهم العلمية ليعيدوا خلق جوهم العلمي من جديد .

ونلاحظ أن حياة ابن سعيد نفسه كانت ـ قبل رحيله الى المشرق ـ موزعة بصورة رئيسية بين أشبيلية وتونس حيث كانت الأولى متألقة في بداية الحقبة وحيث بدأت الثانية تتألق مع نهايتها وفي السنين التي تلت . ويصدق هذا القول على أكثر علماء أشبيلية خاصة والأندلس عامة .

الى جانب هذين المركزين الرئيسيين الهامين ، كانت هنالك مراكز أخرى في الأندلس لها دورها الثقافي مثل قرطبة وبلنسية في أوائل الحقبة ، إلا أنهما لم تكونا في مكانة أشبيلية التي كانت عندئذ قاعدة السلطات ، وأكثر أماناً ـ نسبياً ـ من حيث التأثر بسير الغزو الاسباني إذ لم يصلها الاسبان الا بعد أن احتلوا قرطبة بثلاث عشرة سنة وبلنسية بعشر سنين. وفي أواخر هذه الحقبة كانت الظروف تهيء غرناطة لتكون المركز العلمي الوحيد والأخير في الأندلس . فبعد سقوط المدن الأخرى قصدها بعض العلماء للعيش في ظل أميرها ابن الأحمر الذي هادن الاسبان وبدأ يضع أسس إمارته الجديدة . غير أن وضع غرناطة لم يكن واضحاً في الزمن الذي نتحدث عنه وكان ثمة خوف من سقوطها مع البقية ، لذا لم تزدهر الحركة العلمية بها أثناء تلك الحقبة بالذات وإن كانت بذورها قد بذرت .

أما في الإمارة الحفصية ، فنشاهد الى جانب المركز الثقافي الأهم : تونس ، مدينة بجاية التي يعود ازدهارها العلمي ـ بصورة رئيسية ـ الى العلماء الاندلسيين المهاجرين إليها من أشبيلية وبلنسية ومالقة ومرسية وشاطبة[1] . ويبدو أن الصبغة الدينية كانت غالبة على النشاط الثقافي في

---

(1) عنوان الدراية ، ص 5 ، 43 ، 51 ، 139 ، 174 ، 188 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بجاية إذ قصدها كبار متصوفة العصر وفقهائه وحفاظه[1] . ومن المراكز العلمية الجديرة بالذكر في هذا المجال جزيرة منورقة حيث أقام الرئيس العالم الأديب سعيد بن حكم القرشي نظاماً مرناً مهاداً للاسبان . فكان بعض العلماء المهاجرين من الأندلس يقصدون بلاطه للإقامة أو يمرون به طلباً للمساعدة . وكانت العلاقات العلمية ناشطة بين منورقة وتونس في ذلك الوقت بفضل علماء الأندلس خاصة[2] .

6 ـ أشبيلية في عصر ابن سعيد

1 ـ جو أشبيلية الطبيعي والعمراني :

تقع أشبيلية على نهر الوادي الكبير الذي يمر بها آتياً من قرطبة منساباً نحو مصبه عند البحر المحيط . وهذا الموقع جعل منها ميناءً نهرياً داخلياً ، بالإضافة الى أهمية مركزها في التجارة البرية . كما أن وجودها في هذه المنطقة النهرية جعل منها قاعدة لمنطقة زراعية واسعة . وهذا الجو الطبيعي الأخضر كان له أثره في تلطيف أذواق الأشبيليين وتعميق أحاسيسهم بالمنظر الجميل : فالريف الأشبيلي يمتاز بـ « الماء الجاري والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليمون . . وغير ذلك[3]، فهو « كريم التربة ، دائم الخضرة لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه » حتى أن السائر يمشي أربعين ميلاً في مثلها « في ظل الزيتون والتين[4] » . كما أن نهرها الذي يخترقها يمتاز عن سائر الأنهار بـ « كون ضفتيه مطرزتين بالمنازه والبساتين والكروم ، متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره » . وهذا الحسن الطبيعي سحب نفسه على مظاهر العمران في المدينة ، فقد اهتم الأشبيليون بـ « تزيين الخارج

---

(1) المصدر السابق 5 ، 13 ، 20 .
(2) القدح 28 .
(3) نفح الطيب 4/200 .
(4) المصدر السابق 1/150 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والداخل » من مبانيهم وراعوا تبييضها لتتناسب مع جو مدينتهم الأخضر فإذا « هي من تبييضهم لها نجوم في سماء الزيتون[1] » على حد تعبير الشقندي الذي يصف أشبيلية في تلك الحقبة بالذات . وسيفتقد الأشبيليون هذا الإنسجام بين البياض والخضرة الذي سيظل مقياساً لحكمهم على جمال المدن ونضارتها حتى أن ابن سعيد نفسه سيتعجب عند دخوله « الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها . . .

«وفي الأندلس . . إذا توجهت من أشبيلية فعلى مسيرة يوم . . . مدينة شريش وهي في نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة . . . . . وهذا كثير في الأندلس[2]» .

2 ـ عظمة أشبيلية في العصر الموحدي :

عندما تألقت أشبيلية في عصر ابن سعيد مركزاً ثقافياً وحضارياً في بلاد الأندلس ومنطقة المغرب الإسلامي كله ، لم يكن تألقها هذا أمراً عابراً أو حادثاً جاء مع السلطان الموحدي ونشأ لظروف دقيقة محدودة . فأشبيلية كائن حضاري عريق أخذ ينمو تدرجاً وصعداً مع حركة التاريخ حتى شهد كامل نموه في العصر الموحدي . عندما كانت اسبانيا رومانية كانت أشبيلية قاعدة الرومان ، وعندما أصبحت قوطية أضحت أشبيلية أكبر مدنها وأرقى مركز فكري فيها ، وعندما غدت عربية أمست أشبيلية مقر أول أمرائها : عبد العزيز بن موسى بن نصير . لذا كان انقيادها لقرطبة صعباً ، إذ تمردت عليها يوم كانت قرطبة أموية وانفصلت عن سلطة خلفاء عبد الرحمن الثاني ابن الحكم في ظل أمرائها بني الحجاج . وما إن خربت الفتنة البربرية قرطبة سنة 400 هـ حتى غدت أشبيلية المدينة الأولى في الأندلس : عمراناً وسياسة وثقافة .

---

(1) المصدر السابق 4/199 .

(2) البيان المغرب 3/138 ـ 139 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تألقت مع تألق الشعر والأدب في بلاط بني عباد ثم أخذها المرابطون عاصمة لهم عندما حكموا الأندلس وأخيراً غدت عاصمة الموحدين عندما انتقل إليها الخليفة العالم يوسف بن عبد المؤمن وواصل الإقامة فيها خلفاؤه من بعده أثناء وجودهم في الشطر الأندلسي من دولتهم . وقد حظيت أشبيلية بالكثير من اهتمام هذا العاهل المثقف المشجع للعلوم والعمران . فهو « الذي مصر أشبيلية وأمر ببناء سورها من جهة الوادي . . بعد هدم السيل له عام أربعة وستين (564) ـ ولما استقر بأشبيلية في عام ستة وستين (566) عقد جسراً على واديها بالقنطرة العظيمة المؤسسة . . لعبور الناس . . . ولإجازة العساكر للغزو . . وجلب الماء في الساقية لمشرب أهلها . . . وابتنى فيها الجامع الكبير . . . وابتنى الصومعة الى نصفها وابتنى الزلالق لأبواب أشبيلية . . . احتياطاً من السيل ، وابتنى قصبتها البرانية والداخلية . . . وابتنى جميع أسوارها . . . وفدى من الأسر من وجد عند الروم من أهلها[1] » . وصحبت هذه النهضة العمرانية حركة تجارية مزدهرة وحركة ثقافية نشطة . والواقع أن معظم ما أشرنا إليه من مظاهر الثقافة كان ينطلق من أشبيلية أو يتجه إليها . وقد واصل خلفاء يوسف العناية بأشبيلية : فأكمل ابنه المنصور صومعة مسجدها الجامع ببناء برج « الجيرالدا » والجدير بالذكر أن هذا الجامع الأعظم بني على يد جد ابن سعيد ، محمد بن عبد الملك والي أشبيلية من قبل الموحدين[2] . كما قام المأمون ببناء برج الذهب . وإذا كانت أشبيلية قد فقدت عظمتها السياسية تدريجاً ابتداء بوفاة المنصور ومروراً بهزيمة العقاب وانتهاءً برحيل المأمون عنها ووقوعها فريسة بين تنازع ابن هود والباجي وابن الأحمر ، فإنها لم تفقد مكانتها الحضارية عامة والثقافية خاصة بمثل هذه السرعة شأنها في ذلك شأن سائر المدن العظيمة التي مرت بظروف مشابهة . وهكذا ظلت متألقة شطراً كبيراً من هذه الحقبة الأخيرة حتى السنوات الأخيرة التي سبقت سقوطها عام 646 هـ .

---

(1) البيان المغرب 3/138 ـ 139 .

(2) المغرب 2/162 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأشبيلية في هذه الحقبة صورة ناطقة لطابع عصرها المتغير ، المتقلب ، المشحون بالحيوية ، والناظر لأشبيلية من زاوية معينة يخرج بانطباع مغاير لانطباع الناظر إليها من زاوية أخرى . فقد كانت هذه المدينة مجموعة من « الأجواء » التي تبدو متنافرة متباعدة من الخارج ولكن من يحاول أن ينظر إليها عن كثب يمكنه أن يكتشف وحدة تلك الأجواء المتباينة ، التي تكون تمازجها العجيب : « أشبيلية » .

فقد كانت أشبيلية قاعدة السلطة السياسية وكانت قاعدة انطلاق جيوش الموحدين للغزو وكانت مركز الثقافة الأول في الأندلس والمغرب . . . وكانت مركزاً تجارياً عظيماً . . وكانت ـ أخيراً لا آخراً ـ مدينة الطرب واللهو والفرجة . . . وبإيجاز كانت قصبة لالتقاء كافة الميول والأهواء ، فقد جمع فيها الغرب الإسلامي كافة مخزوناته الحضارية في آخر فترة وأزهى فترة من فترات تألقه الحضاري . وربما ـ نظراً لذلك ـ يمكننا قبول المبالغة المشهورة التي رواها لنا الشقندي عن عوام أشبيلية : « لو طلب لبن الطير في أشبيلية . . وجد[1] » .

3 ـ أشبيلية وحياة اللهو والطرب :

في هذا الجو الطبيعي الجميل التقت عناصر عديدة من السكان . من بقايا الرومان والقوط ، الى الاسبان الأصليين ، الى العرب ، الى البربر ، الى الجالية اليهودية ، الى عناصر مجلوبة أخرى كالصقالبة ، لتكون شعب أشبيلية الناطق بالعربية ، الخاضع للموحدية ، المعتز بالأندلسية . ومن الطبيعي ألا يرى هذا الشعب المزيج في التزمت والجد والصرامة والوقار قيماً يجب التمسك بها حرفياً . لذلك ليس من المستغرب أن نجد « أهل أشبيلية أكثر العالم طنزاً وتهكماً » إذ أنهم « قد طبعوا على ذلك[2] » حتى طارت لهم شهرة طبقت الآفاق فعرفوا بأنهم « أخف الناس أرواحاً ،

---

(1) المغرب 1/286 .

(2) نفح الطيب 4/199 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطبعهم نوادر ، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب ، قد مرنوا على ذلك . فصار لهم ديدناً حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً . . [1] » وطبيعي أن يقدر هذا الجو الضاحك المرح مظاهر اللهو على اختلاف أنواعه خاصة في هذا العصر الذي تشجع ظروفه الإجتماعية والنفسية على ذلك . وهكذا أصبحت أشبيلية « بأهلها يضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة [2] » . « وقد سعد هذا الوادي (وادي أشبيلية) بكونه لا يخلو من مسرة ، وإن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناه عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر الى شر وعربدة . . » وإذا عرفنا أن هذا الكلام أورده أديب أندلسي كبير هو الشقندي في مجال الفخر بأشبيلية عاصمة الأندلس أمام أمير موحدي وفي مناظرة ضد مغربي متطرف ـ دون أن يخشى لومة لائم ، أدركنا أن الرأي العام عندئذ كان يقدر هذه الجوانب من الحياة ولا يستحي أو ينفر منها . بل أن الشقندي يشير صراحة الى أن مقاومة الدولة لذلك باسم الدين لا تجدي ، فيقول : « . . وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك ، فلم يستطيعوا إزالته [3] » فإذا كان هذا القول ينطبق على عصر الموحدين الملتزمين بدعوة عقيدية محددة ، فما بالك بعهود الأمراء الضعاف الذين توالوا على حكم أشبيلية من بعدهم ؟ .

وقد أدى جو المرح واللهو الى تشجيع الطرب والغناء حتى غدت أشبيلية المركز الموسيقي الأول في الأندلس وارتبط ذكرها بذكر الموسيقى حتى أن ابن رشد عندما أراد الفخر بمدينته قرطبة في مناظرة بينه وبين أبي بكر بن زهر قال له : ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى أشبيلية [4] ، وقد مدح ابن رشد أشبيلية من حيث

---

(1) المصدر السابق 1/151 .

(2) المصدر السابق 4/199 .

(3) نفح الطيب 4/199 .

(4) المصدر السابق 1/147 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكانتها الموسيقية ، حيث أراد ذمها . ويحدثنا الشقندي عن تنوع الآلات الموسيقية في أشبيلية فيقول : « وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال والكربح والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والفنار والزلامي والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ، والبوق ، وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد[1] » .

وسنرى كيف أن هذا الجو الضاحك المرح الخليع ، الطروب قد عكس نفسه في مصنفات ابن سعيد وفي جوانب من حياته الخاصة حتى غدا عنصراً أساسياً من عناصر شخصيته .

4 ـ جو الجد والعلم والتدين في أشبيلية :

من مظاهر عظمة أشبيلية أن جو اللهو والطرب لم يتمكن أن يسيطر عليها ليجعلها مدينة منازه وحانات فحسب . فقد سابقت شهرة أشبيلية في العلم شهرتها في اللهو وإذا كانت هذه الشهرة الأخيرة عمت آفاق الأندلس فإن الشهرة الأولى وصلت إلى المشرق : شامه وعراقه ، ولا تكاد مصادر هذه الفكرة كالقدح والتكملة وعنوان الدراية تمر بشخصية علمية دون أن تذكر علاقتها بأشبيلية سواء أكانت هذه العلاقة إقامة أو دراسة وتدريساً أو إمامة أو توطناً أو زيارة .

ومنتديات العلم في أشبيلية عديدة في مقدمتها بلاط الموحدين الذي اصطبغ بصبغة علمية رفيعة أيام يوسف عبد المؤمن وابنه المنصور بما ضم من أكابر رجال الفكر والأدب والفقه ـ وقد أشرنا الى أشهرهم ـ كما أن المأمون ـ آخر خليفة موحدي في الأندلس ـ عرف بتشجيعه الشديد للعلم وبشغفه الشخصي بالعلوم حتى عد عالماً[2] ، بالإضافة الى ذلك كانت دور الأمراء والأعيان تستضيف أهل العلم وتعتني بالخزائن العلمية . ولقد كانت

---

(1) المصدر السابق 4/200 .

(2) القدح 152 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار بني سعيد ـ وهم ولاة المدينة من قبل الموحدين ـ في مقدمة الدور المهتمة بعلوم التاريخ والجغرافيا والأدب ، خاصة وأن هذه الأسرة قد ألزمت نفسها مسؤولية هامة ألا وهي وضع موسوعة أدبية ـ تاريخية ـ جغرافية عن الأندلس خاصة والمغرب عامة . هي كتاب « المغرب » الكبير . وكان الأثرياء الذين يقيمون لأنفسهم القصور الضخمة يحرصون على إتمام مظاهر أبهتهم بإضافة المكتبات إليها ، فهذا ابن حسان الأشبيلي يبني قصراً يشبه « منزل السلطان » ويلحق به مكتبة كبيرة يستقبل فيها زواره من محبي العلم ، يحدثنا ابن سعيد عنه : « دخلت إليه مع والدي وهو بهذا القصر في بهو قد ملأه من الكتب . فسافرت أبصارنا في تلك الساحة العريضة الطويلة . . . »[1] .

وكانت مجالس العلماء والمساجد أهم مراكز التدريس العامة التي لا تقتصر على طبقة دون طبقة بل هي مفتوحة للجميع أغنياء وفقراء ، بلديين وغرباء ، من ذلك مجلس الشلوبيني إمام النحو في عصره وأستاذ ابن سعيد وابن سهل وأبي بكر الصابوني[2] . يحدثنا ابن سعيد أن مجلسه « بأشبيلية كان غاصاً بالبلديين والغرباء من الآفاق . . ثم رحلت فوجدت ذكره قد ملأ مسامع الشام والعراق ومن مراكز العلم المشهورة في أشبيلية جامع العدبس حيث كان أبو الحسن الدباج الذي كان مُن الأدب بمنزلة عالية « والذي كان « أمتن الناس ديناً وأخلصهم لله يقيناً يتولى الإمامة وإقراء الأدب »[3] .

والى جانب ما شهدناه من نماذج الخلاعة والإنحلال الخلقي نلتقي في هذه المدينة الجامعة بنماذج رائعة للورع والتقوى فهذا الشيخ أبو بكر بن قسورة بن زهر الأيادي الأعظم يتصف بـ « حال جليل من الصيانة ، والخير والأمانة ، حتى قدمه أهل بلده إماماً بجامعهم الأعظم وكان رحمه الله ـ حقيقاً بأن يؤتم به ويقدم . . .[4] وهذا الفقيه أبو عمران موسى المارتلي

---

(1) القدح 152 .
(2) المصدر السابق 155 .
(3) المصدر السابق 150 .
(4) الغصون اليانعة 135 ـ 137 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشتهر بالـزهد والإنقـطاع حتى كان في ذلـك واحد وقتـه « يزوره الملوك ويتبركون به ويستوهبون دعاءه » . . وكان لا يقبل من أحد شيئاً وإنما كان له ما يقوم به من ملك ورثه من جهة طيبة . وكان مع ذلك يعمل الخوص بيده في خلوته ويبيعه ويتصدق منه لأنه كان يرى كراهية البطالة عن شغل لمثله[1] .

وكانت دور العلم هي الجامع الذي يلتقي فيه أهل اللهو والطرب من شعـراء وزجالين ووشـاحين ومتغنيين كابن سهـل وابن عتبة وابن جحـدر والصابوني بأهل الجـد من فقهاء ونحـويين كالـدباج والأعلم البـطليوسي والشلوبيني وابن عصفور ، فتتم في رحاب المعرفة وحدة شخصية المدينة الضاحكة الجادة ، اللاهية المتدينة النابضة بتدفق الحياة اولاً وأخيراً .

ومن الطريف أن نشير في الختام أن ملامح شخصية أشبيلية ـ على ما هي عليه من تنوع وخصب ـ سنراها تنطبق الى حد كبير على شخصية ابن سعيد الأديب الجغرافي المنادم الظريف ، بل ربما جاز القول أن ابن سعيد أصدق معاصريه تعبيراً عن روح أشبيلية .

7 ـ أسرة بني سعيد

من حق بني سعيـد علينـا في هـذا البحث أن نخصهم بشيء من الإلتفات لأسباب عدة ، أولها أن هذه الأسرة لعبت دوراً مرموقاً في تاريخ الأندلس الثقافي والسياسي وخاصة في عصر الموحدين ، وثانيها أن بعض أفرادها البارزين ساهموا في الإعداد لكتاب المُغرب قبل أن يقوم آخرهم صاحبنا علي بن سعيد بإظهاره في ثوبـه النهائي . فهؤلاء إذن مشـاركون رئيسيون في الكتاب الذي تحاول هذه الدراسة إبرازه بشكل خاص باعتباره مصدراً أولياً في الأبحاث الأندلسية . أما ثالث هذه الأسباب فهو أن تعرفنا الى أسرة بني سعيد شخصياً وثقافياً سيمكننا من فهم « البيئة العائلية » التي نشأ فيها ابن سعيد نفسه والتي تأثر بها خلقياً وعلمياً الى حد بعيد كما سنرى

---

(1) انظر الفصل الخامس بشخصيته من هذا البحث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عند دراستنا لشخصيته .

وأسرة بني سعيد أسرة عربية معروفة ارتبط ذكرها بتاريخ الكفاح الإسلامي المبكر ضد مشركي قريش عندما اشتد ضغطهم على النبي وأصحابه قبل الهجرة . فهذه الأسرة تنتمي الى عمار بن ياسر العنسي الذي احتمل هو ووالده حر الهجير في مكة تحت سياط القرشيين حتى استحقوا قول الرسول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة . . » .

وتشاء الظروف أن يكون لعمار دور آخر مشهود في معركة الجمل ، ودور أكثر أهمية في معركة صفين إذ أنه قتل مخلفاً وراءه جدلاً عنيفاً بين أنصار علي وأتباع معاوية حول تفسير العبارة المنسوبة للنبي والموجهة له : « تقتلك الفئة الباغية » .

ويبدو أن بعض أحفاد عمار قدم الى الأندلس في عهد الفتح أو بعده بقليل ، إذ نجد أحد أحفاده وهو عبد الله بن سعد بن عمار يحل بالقلعة التي ستعرف بقلعة بني سعيد (وهي عبارة عن إقطاعية كبيرة في ريف غرناطة تتكون من القلعة السعيدية ـ أكبر حصن بها ـ ومن حصنين : القبذاق والعقبين[1] وتعرف أيضاً بقلعة يحصب[2] . ويصبح أميراً على اليمانية من جند دمشق ويوالي يوسف الفهري والى العباسيين في الأندلس ، ويقف تبعاً لذلك في وجه بني عمار قاتلي جدهم .

وبعد قتل عبد الله المذكور على يد الداخل ، يختفي ظهور هذه الأسرة عن مسرح الأحداث المشهورة حتى يثور أحد أفرادها ، وهو خلف بن سعيد ، زمن ملوك الطوائف ويستقل بالقلعة وتوابعها[4] .

---

(1) المغرب 2 (160 ، 182 ، 185) .
(2) آنخل بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 244 .
(3) المغرب 2/161 .
(4) المصدر السابق 2/161 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الملك بن سعيد (496 ـ 562)[1]

ويظل بنو سعيد في قلعتهم حتى يظهر من بينهم عبد الملك بن سعيد الذي ساهم في مقاومة المرابطين أثناء ثورة الأندلس عليهم ، ثم أيد الموحدين واستمر في إمارة منطقته باسم عبد المؤمن أول خلفائهم . ويبدو أن عبد المؤمن شك في ولائه له فاستقدمه الى مراكش وسجنه ، إلا أنه عاد فعفا عنه وأعلى قدره . وكانت وفاته بحضرة مراكش . وقد عُرف عبد الملك بتشجيعه للعلم ومساهمته فيه ، ففي أواخر حكم المرابطين قدم عليه أبو محمد عبد الله الحجاري (499 ـ 549)[2] ومدحه وصنف له بناء على طلبه كتاب « المسهب في غرائب المغرب » الذي أصبح فيما بعد نواة لكتاب « المغرب » ويروى أن عبد الملك نفسه هذب « المسهب » وزاد عليه ثم عهد به الى أبنائه من بعده فبين الحجاري وبني سعيد ـ إذن ـ رابطة من العلم ورابطة من الولاء والخدمة . فهو كما ذكر واضع نواة المغرب بمسهبه الذي ألفه سنة 530 من ستة أجزاء وضمنه فضائل أهل الأندلس والمغرب على أساس ذكر المشاهير منذ زمن الفتح حتى عصره مع رواية شيء من أشعارهم وأخبارهم التاريخية ممزوجة بشيء من المعلومات الجغرافية . وللحجاري اتصال بالأمير أحمد بن عماد الدولة بن هود أمير « روطة » في عهد الطوائف ، وقد أسر في أثناء مرافقته لهذا الأمير في إحدى غزواته ولم ينقذه من الأسر إلا عبد الملك بن سعيد السابق ذكره . وصفه علي بن سعيد بأنه « جاحظ المغرب » وروي أن والده موسى بن سعيد أطنب في الثناء عليه من طريق البلاغة نظماً ونثراً ومعرفة بالتصنيف[3] .

---

(1) انظر المصدر السابق 161/2 وكذلك النفح 101/3 .

(2) المغرب 35/2 تاريخ الفكر الأندلسي 272 .

(3) المغرب 35/2 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد بن عبد الملك بن سعيد (514 ـ 589)[1]

كان ولي عهد والده ، عبد الملك وقائد جنده . اتصل بالمرابطين أول الأمر حيث صار مقدماً عند يحيى بن غانيه واليهم على غرناطة ، ثم ولاه الموحدون أعمال أشبيلية وغرناطة وأعمال سلا بالمغرب الأقصى وعلى يديه بني الجامع الأعظم بأشبيلية ، وقد اشتهر محمد بالقدرة والكفاءة في الحكم كما كان واسع الثراء يميل الى الأبهة في منزله وملبسه ومواكبه حتى أن الخليفة الموحدي المنصور عزله وصادر أملاكه فترة من الزمن ، إلا أنه عاد وعفا عنه وعوضه لما عرف عنه من اهتمام بأمور الرعية .

وسار محمد على سنة والده في تشجيع العلم فواصل الإهتمام بتوسيع كتاب « المغرب » كما شجع رجال العلم والشعر حتى قصده الرصافي البلنسي (ـ 572) شاعر العصر الكبير « الذي كان يمدح الخلفاء » وبالغ في مدحه وتعظيمه .

الشاعر أبو جعفر أحمد بن عبد الملك (ـ 559)[2] .

هو شقيق محمد السابق ذكره ، يعتبر أشهر أسرة بني سعيد ، وأحد الشعراء البارزين في عصر الموحدين . وفي حياته عدة ظواهر تستلفت النظر . فلقد كان مخلصاً مع ذاته منسجماً مع مزاجه الشعري لا يخضعه لمتطلبات وزارة أو كتابة حاول والده عبد الملك أن يوكل إليه وظائف في الدولة فانسل منها ، كما ولاه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة وظيفة الكتابة وأرغمه على ذلك فهجاه وساءت علاقته معه وأدى ذلك الى قتله . ولأبي جعفر شبه بابن زيدون . فلقد أحب شاعرة تدعى حفصة الركونية ، وأخذ يراسلها بالأشعار وتلاقى معها ونافس في حبها مولاه أبا سعيد بن عبد المؤمن مما أدى الى مزيد من التدهور في علاقته به وانتهى

---

(1) المصدر السابق 62/2 النفح 100/3 .

(2) المغرب 164/2 ، الرايات 64 ، ابن الخطيب الإحاطة 94/1 ، النفح 211/5 ، العمري ، المسالك11 ورقة 279 (مخطوطة طوبقيوسراي) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمر بقتله . ولأبي جعفر يد طولى في إضافة مواد جديدة الى « المغرب » فقد كان شاعراً يميل الى فنون الأدب بطبعه مما أفسح له مجال الإهتمام بهذه الرسالة الموسوعة المتنامية .

والد بن سعيد ، موسى بن محمد بن عبد الملك (573 ـ 640)[1] .

هو أبرز أبناء الوالي محمد ، يتوازى في حياته خطان : العمل للدولة في الإمارة والولاية ، والجهد الشخصي في حقل التقييد والتصنيف ، إلا أنه على العموم أقل احتفالاً بالناحية الأولى وأكثر ميلاً الى الثانية وربما كانت حياته مرحلة وسطى في تاريخ الأسرة من اهتمامها بالعمل السياسي أساساً الى تحولها شيئاً فشيئاً نحو العمل العلمي .

فالملاحظ أن أسرة بني سعيد منذ أيام خلف بن سعيد حتى أيام محمد بن عبد الملك والد موسى كان يغلب عليها الطابع السياسي مع اهتمامها بالناحية العلمية ، إلا أنه مع ظهور الشاعر أبي جعفر وموسى بدأ الاتجاه يشتد نحو العلم يتغلب على الاتجاه السياسي ، وسنرى أن هذا التطور سيتوج بظهور صاحبنا علي بن سعيد الذي سيترك المهام السياسية والرسمية ـ اللهم إلا تولي الكتابة لبعض الأمراء وقت الحاجة ، وهي وظيفة ذات طابع أدبي ـ ويتجه بصورة رئيسية نحو حقل التصنيف . ولعل سر هذا التحول راجع الى تدهور الأوضاع السياسية في الأندلس وارتباط العمل السياسي بالأخطار والنكبات ، مما حدا بالأسرة الى الاتجاه نحو اهتمامها الآخر الذي ازداد نموه مع تصاعد النشاط العلمي في العهد الموحدي ، والذي كان الملجأ الأمين الوحيد في مثل تلك الظروف .

هذا وقد استمر موسى في خدمة الموحدين ، وكان ضمن حاشية المنصور التي صحبته في وقعة الارك المشهورة سنة 592[2] ، ثم كتب

---

(1) المغرب 2/170 النفح 3/99/114 ـ 128 .

(2) المغرب 1/221 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للخليفة عبد الواحد (المخلوع) واتصل بالعادل وصحبه في رحلته الى مراكش سنة 624 [1] وبعد مقتله عاد الى الأندلس حيث كتب لمنافسه أبي العلاء المأمون وهو آخر خليفة موحدي يحكم الأندلس . وفي ظل حكم ابن هود تولى أمرة الجزيرة الخضراء بين سنتي 630 ـ 632 [2] إلا أنه أخر عن الولاية بسبب الوشايات ومنذ ذلك الحين لم يتول موسى عملاً رسمياً في الأندلس ، خاصة عندما بدأ الصراع على الحكم في أشبيلية ذاتها بين ابن هود والباجي وابن الأحمر مما أتاح له فرصة التنقل ومقابلة العلماء والأخذ منهم . ويطنب المؤرخون في ذكر كلف موسى بالرحلات العلمية واللقاءات الشعرية والأدبية ، فلقد زار معظم المدن الأندلسية قبيل مغادرته النهائية للأندلس سنة 636 ويندر أن يكون قد فوت الالتقاء بعلم من أعلام العلم والأدب في عصره ، ومعظم رجال الثقافة الذين رآهم ابن سعيد هم أصدقاء شخصيون لوالده . ومن ضمن العلماء الذين تتلمذ عليهم أو استفاد منهم ابن رشد [3] والحافظ وأبو بكر بن الجد ، وأبو بكر بن زهر [4] وأبو وليد الشقندي [5] .

ويحدثنا ابن سعيد أن والده موسى له « الحظ الأوفر » في كتاب المغرب كما أنه أوحى له بفكرة كتاب « المشرق » وكان « أشغفهم (بني سعيد) بالتاريخ وأعلمهم به . . وقد عاش سبعاً وستين سنة ولم أره يوماً يخلى مطالعة كتاب ، أو كتابة ما يحلو حتى أيام الأعياد » [6] .

ولموسى نظم يميل الى الطريقة الوعظية ، وتمتاز كتابته النثرية بتغلب عنصر الفكرة عليها مع عناية بالشكل لا توغل كثيراً في التكلف . ويبدو في الوصية المطولة التي كتبها لابنه علي أواخر حياته حكيماً متأنياً له نظرات

---

(1) القدح 211 .
(2) المصدر السابق 142 .
(3) المغرب 221/1 .
(4) النفح 128/3 .
(5) المغرب 214/1 .
(6) المصدر السابق 170/2 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الأخلاق وآراء في العلاقات الشخصية والاجتماعية وفي مواجهة الحياة عامة . ويمكن اعتبار الوصية هذه نموذجاً طيباً لنظرة رجل حكيم مجرب الى الناس والزمان والأشياء في ذلك العصر فهي تتجاوز إطار النصائح العادية الشائعة لتقدم مواقف شخصية لها طابعها الخاص . وهي إجمالاً يغلب عليها طابع التفاؤل وتتسم بالحث على مقارعة صروف الدهر وعدم الاستسلام لها . وسنرى أن ابن سعيد سيتأثر بهذه الوصية ويستفيد منها في حياته الحافلة . وقد وصل موسى مع ابنه إلى تونس حيث أقام هناك بين سنتي 636 ـ 639 يشتغل بالكتابة لولي العهد الحفصي أبي يحيى ، وإن شابت علاقته بهذا الأمير السعايات والوشايات كذلك ثم رحل ـ مع ابنه أيضاً ـ الى مصر حيث توفي في الاسكندرية سنة 640 هـ .

شخصيات أخرى من بني سعيد .

ترجمنا فيما سبق لأهم رجالات بني سعيد في حقل السياسة والأدب وللمساهمين منهم في « المغرب » بالذات وقد اتفق أن كان هؤلاء أجداد علي بن سعيد أو أعمامه الأقربين . وإكمالاً للإستقصاء نشير هنا بإيجاز الى شخصيات أخرى من الأسرة السعيدية لها صلة بابن سعيد من قريب أو بعيد .

1 ـ **أبو بكر محمد بن سعيد**[1] : تولى أعمال غرناطة أيام المرابطين . وله اهتمام بالأدب والشعر .

2 ـ **حاتم بن سعيد**[2] : كان من أصحاب ابن مردنيش الثائر ببلنسية والشرق الأندلسي في بداية عهد الموحدين ، وكان يقرض الشعر ، توفي سنة 592 هـ .

3 ـ **مالك بن محمد بن عبد الملك**[3] : هو عم علي بن سعيد قام برحلات

---

(1) المغرب 2/163 .

(2) المصدر السابق 2/168 ، الإحاطة 1/310 .

(3) المغرب 2/171 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الأندلس والمغرب واستقر كاتباً عند يحيى بن غانيه الميورقي الذي احتل تونس وحارب الموحدين أيام محمد الناصر . وكان يتعاطى نظم الشعر أيضاً .

4 ـ **عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك**[1] : هو عم آخر لعلي بن سعيد كان معروفاً بالحدة وسرعة الغضب فترك الأهل وغادر الأندلس الى المغرب ومن هناك قام برحلة طويلة مر بها الغرب الأوسط (الجزائر) فتونس ، فالاسكندرية فالقاهرة ، فالحجاز للحج ، فدمشق ، فحلب ، فالموصل ، فبغداد ، ففارس ، حتى وصل الى بخارى وعكف هناك على الدرس . وقد بعث الى أهله بالأندلس رسالة يصف فيها أحداث رحلته بإيجاز ويذكر انطباعه عن كل بلد زاره ، وقد حفظ لنا ابن سعيد هذه الرسالة ، ويبدو أنه اطلع عليها ضمن سجلات الأسرة وانها أثارت في نفسه الشوق الى الترحال . ولعبد الرحمن شعر جميل في التشكي من الغربة . وقد قتله التتار عند اكتساحهم لبخارى حوالي سنة 615 هـ .

5 ـ **أبو عبد الله محمد بن الحسين بن سعيد**[2] : من بني سعيد الذين برزوا في تونس في ظل الإمارة الحفصية ، وكان من قادة الجيوش ، عمل للأمير أبي زكريا (ـ 647) وابنه المستنصر (ـ 675) وقد ساعد ابن سعيد ووالده على التقدم عند الأمير أبي زكريا أثناء نزولهما في تونس ، إلا أنه سرعان ما انقلب عليهما وسعى في تأخيرهما . ولابن سعيد قصائد طويلة في مدحه ومعاتبته واستعطافه . وكان هذا القائد كسائر أفراد الأسرة السعيدية ، يتعاطى فنون الأدب نثراً وشعراً .

***

من هذا العرض السريع لتاريخ الاسرة السعيدية نجمل خصائصها

---

(1) المصدر السابق 2/172 ، النفح 3/132 .

(2) المصدر السابق 2/168 ، النفح 3 ، 44 ، 85 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهـامة المتـركزة في علو النسب ووضـوحه ، وارتفـاع المكانـة عبـر العصور ، والمركز القيادي والمسحة الأرستقراطية ، والإسهام الغني في الحركة الثقافية شعراً وأدباً وتصنيفاً ، وروح الإقدام والمغامرة . . .

وهي خصائص سيكون لها في نفسية ابن سعيد وحياته ومكانته نصيب واضح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

سيرة ابن سعيد

(610 ـ 685 هـ / 1213 ـ 1285 م)

بين نشأه أندلسية ورحلات مشرقية

1 ـ نشأته في الأندلس :

ـ مولده في غرناطة

ـ نشأته ودراسته في أشبيلية

ـ تنقله مع والده في أرجاء الأندلس

2 ـ حياته بين المغرب والمشرق

ـ إقامته في تونس

ـ رحلته الأولى الى المشرق

ـ عودته الى تونس

ـ رحلته الثانية الى المشرق

ـ عودته الأخيرة الى تونس ووفاته بها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ حياة ابن سعيد

في حياة ابن سعيد دوران متميزان بارزان : دور إقامته في بلده ، ودور رحلاته وتغربه . ورغم أن الدور الثاني يغطي الدور الأول من حيث الإمتداد الزماني والإتساع المكاني والنشاط العلمي فإنه لا يفوقه من حيث التأثير العميق في تكوين ابن سعيد النفسي والعلمي . ولولا هذا الدور الأول وما امتاز به من إعداد وتجارب لما تمكن ابن سعيد من مواجهة الدور الثاني وتحدياته ومصاعبه بقدر كبير من الإستعداد والقدرة .

وينقسم الدور الأول في حياة ابن سعيد الى ثلاث فترات: فترة مولده وطفولته في غرناطة . وفترة صباه وشبابه ودراسته في أشبيلية ، ثم فترة تجواله في أرجاء الأندلس مع والده لجمع المادة العلمية لمؤلفاتهما وخاصة كتاب « المغرب » . ويلاحظ أنه ليس ثمة فاصل تام الوضوح بين الفترة الثانية والثالثة فقد كان ابن سعيد يصحب والده في جولات قصيرة في المدن القريبة من أشبيلية أثناء فترة دراسته بها ، كما أنه كان في الفترة الثالثة ـ فترة التجوال في الأندلس ـ يمر بأشبيلية ويقيم بها عاماً أو بضعة شهور دارساً أو مستعيداً ذكريات لهوه . غير أن التمييز يزداد وضوحاً عندما يقرر الوالد والإبن حوالي سنة 632 هـ مغادرة الأندلس ، عندئذ يتركان أشبيلية نهائياً ويتجهان صوب جنوب شرقي الأندلس حيث يمضيان ما يقارب الأربع سنوات (632 ـ 636) في زيارات لمدن تلك المنطقة كمرسية ومالقة .

أما الدور الثاني ، وهو دور الرحلة والإغتراب ، فينقسم إلى خمس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فترات : فترة إقامته مع والده في تونس ، وفترة رحلته المشرقية الأولى التي زار خلالها مصر وبلاد الشام والعراق وبعض مدن فارس والديار الحجازية للحج ، ثم فترة عودته الى تونس ، ثم فترة رحلته المشرقية الثانية التي يبدو أنها امتدت حتى أقاصي خراسان متجاوزة حدود الرحلة الأولى ، وأخيراً فترة رجوعه الأخير الى تونس ووفاته بها .

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه :

هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد[1] بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسين بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار بن يسار العنسي[2] . يكنى بأبي الحسن وهي ـ كما هو معروف ـ كنية تطلق على كل من يتسمى علياً في المشرق وهو من ضمن الألقاب التي كان يتيمن المشارقة باطلاقها مقرونة بلفظة « الدين » كشمس الدين وضياء الدين . ويظهر أن من يتسمى علياً ينال لقب « نور الدين » إذ لكل إسم لقب خاص من هذا النوع[3] .

1 ـ حياته في الأندلس

مولده بغرناطة :

عند الحديث عن أسرة بني سعيد تبين أن قلعتهم كانت إقطاعية تابعة لمدينة غرناطة . فمدينة غرناطة ـ إذن ـ هي أقرب المدن الأندلسية إليهم ، وعندما أصبح محمد بن عبد الملك بن سعيد ، جد علي والياً للموحدين تولى ولاية غرناطة قبل أن يرتقي في سلم الولاية ويتولى أعمال العاصمة

---

(1) المغرب 2/172 .

(2) المصدر السابق 2/161 ، يلاحظان بين علي والجد الأكبر ياسر ستة عشر جداً خلال ستة قرون وهو على ما يظهر تناسب محتمل بين العدد والزمن .

(3) نبهني إلى ذلك استاذي الدكتور جبرائيل جبور رحمه الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشبيلية ويبدو أن رجالات بني سعيد كانوا يتركون عائلاتهم وأطفالهم في مدينتهم الأولى عندما يتولون أعمالاً خارجها . وهذا ما قد يصدق على موسى ، والد ابن سعيد ، الذي نراه في رفقة خلفاء الموحدين وأمرائهم منذ سنة 592 حيث رافق الخليفة المنصور في موقعة الارك . وأياً كان الأمر فإن المصادر لا تسعفنا بذكر مكان موسى سنة 610 وهي السنة التي ولد فيها ابن سعيد[1] وإن كان من غير المستبعد أن يكون مقيماً في غرناطة نفسها ، مسقط رأس ابنه ، في تلك السنة . فمن استقراء تاريخ الأسرة يتبين أن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، والد موسى ، كان متولياً أعمال غرناطة قبل حوالي عشرين سنة من مولد علي[2] ، وأن أخاه أبا جعفر أحمد بن عبد الملك خلفه في منصبه حيث استوزره عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، وأن ابنه موسى بقي مع عمه أحمد قائماً له ببعض أعمال الكتابة . فقد كان موسى متعلقاً بعمه الشاعر أبي جعفر معجباً بموهبته الشعرية « مقدماً له على سائر أقاربه[3] » . ومن المرجح أن موسى بقي في خدمة الموحدين بغرناطة بعد مقتل عمه على يد عثمان المذكور حتى مولد ابنه في تلك السنة بها .

ولا يمكن الجزم الى متى ظل ابن سعيد في غرناطة : هل قضى عدداً كبيراً من سنوات طفولته بها أم أن والده أخذه معه الى أشبيلية وهو في سني طفولته الباكرة . وأغلب الظن أنه بدأ يحتك ببيئة أشبيلية ويعيش فيها وهو في حوالي العاشرة من عمره . ففي سنة 621 نجده مع والده في أشبيلية ، وكان والده عندئذ على اتصال بالخليفة الجديد عبد الواحد الذي بويع بالخلافة لتوه[4] . ويلاحظ أن ابن سعيد لا يتحدث عن أية ذكريات باكرة له في غرناطة بينما يورد كثيراً من ذكريات صباه في أشبيلية مما يوحي أنه ترك غرناطة قبل أن يعي الأشياء والحوادث وعياً كاملاً . أما بعض أشعاره التي

---

(1) المغرب : 174/2 ، النفح : 41/3 .
(2) المغرب : 162/2 .
(3) المصدر السابق : 164/2 .
(4) النفح : 124/3 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتشوق فيها الى جلسات لهوه في غرناطة فسنرى أنها تعود الى مرحلة شبابه عندما كان يتنقل بين المدن الأندلسية .

نشأته ودراسته في أشبيلية :

كان لا بد لكل من أراد نيل قسط من الثقافة في تلك الفترة من تاريخ الأندلس من أن يقصد أشبيلية مركز الثقافة الأعظم في تلك الفترة من الوقت . وكان طبيعياً أن يشجع موسى بن سعيد ولده علياً على الدراسة لما عرف عن أسرة بني سعيد من ميل الى العلوم والتأليف . ثم أن موسى اتجه الى الإقامة في أشبيلية عندما كان ابنه بين العاشرة والرابعة عشرة ، لاشتغاله في خدمة الخليفتين أبي محمد عبد الواحد والعادل[1] ، وهكذا شجعت الظروف العلمية والعملية إنتقال ابن سعيد الى العاصمة وهو في حوالي العاشرة .

وفي أشبيلية قضى ابن سعيد عهد صباه ، وفيها تلقى علومه على يد عدد من علماء الأدب والنحو من أمثال أبي علي الشلوبيني النحوي ، والأعلم البطليوس مقرىء من أشياخ الأدب ، وأبي يحيى بن هشام الكاتب ، وأبي الحسن الدباج مقرىء الأدب وإمام جامع العبس[2] ، كما التقى فيها بكثيرين غيرهم من شعراء وعلماء ورجال دولة مكوناً مع الجميع صداقات وطيدة ومثمرة على الصعيد العلمي والشخصي . ولعل أبعد هذه الصداقات أثراً في ميله الشعري وتكوينه النفسي صداقته مع الشاعر الأشبيلي ابن سهل الاسرائيلي التي ذكرها في عدة مواضع من كتابه « القدح المعلى » بقوله : « قرأت معه على الأستاذ أبي الحسن الدباج زماناً وبادرنا لأنواع اللذات ميداناً فميدانا ، وكان مهوى هوانا ، ومجمع لذاتنا ومنانا ، بمرج الفضة والعروس ، والسلطانية وشنتبوس لا نكاد نخلو من التفرج في تلك الأدواح والقصور . . . دعوته يوماً الى مرج الفضة . . . وخرجت مرة

---

(1) النفح 3/126 .

(2) انظر الحديث عن أساتذته بالفصل الخاص بمؤلفاته وعلمه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معه الى السلطانية . . . وتنزهنا مدة بالعروس . . . ثم ركبنا نهر أشبيلية . . . ثم صعدنا الى فم الخليج . . . وحضرت معه يوماً مجلس الأستاذ أبي علي الشلوبيني [1] .

وكما تعود ابن سعيد منذ صغره مخالطة رجال العلم والأدب في ظل والده تعود معه أيضاً منذ تلك السن المبكرة الرحلات بحيث لو وصفت حياته بأنها رحلة متواصلة لما كان ذلك تجاوزاً للحقيقة . فقد سنحت له الفرصة وهو ما زال في السنة الرابعة عشرة من عمره للقيام برحلة الى مراكش ضمن حاشية الخليفة الموحدي العادل الذي كان والده منتظماً في سلك خدمته . ففي سنة 624 اضطر العادل للذهاب الى مراكش بسبب امتناع كثير من أمراء المدن الأندلسية عن مبايعته من ناحية وبسبب اضطراب الحالة في مراكش نفسها من ناحية أخرى تاركاً الأمر في الأندلس لأخيه أبي العلاء المأمون [2] . وفي هذا الجواز الى بر العدوة (المغرب الأقصى) صحبه رهط من علماء الأندلس وشعرائها المقربين إليه من ضمنهم موسى والد ابن سعيد [3] والشري المتأدب ابن حسان الأشبيلي من أعيان أشبيلية [4] ، وأبو عمر بن حكم القبطلي أحد وجوه جزيرة قبطل من أشبيلية [5] وأبو المعالي أحمد القيجاطي من رجالات جبان [6] وقد اصطحب موسى ولده علياً في هذه الرحلة الملكية التي أتاحت له الإجتماع بعدد كبير من الشخصيات الأندلسية والمغربية ، ومشاهدة حاضرة الدولة الموحدية ، والتعرف الى بيئة المغرب التي تختلف من عدة أوجه عن بيئة الأندلس . ولكن يبدو أن ظروف تلك الرحلة لم تكن مساعفة ، فقد قتل العادل في تلك السنة [7] ولا نعلم كيف كان موقف والد ابن سعيد من تلك الحادثة ،

---

(1) القدح : 73 ، 74 ، 75 ، 76 ، 77 .
(2) روض القرطاس 163 ، كتاب العبر 6/251 .
(3) القدح 211 .
(4) المصدر السابق 149 .
(5) المصدر السابق 200 .
(6) المصدر السابق 211 .
(7) روض القرطاس 163 ، كتاب العبر 6/251 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أنه على أي حال كتب رسالة تهنئة وهو بمراكش الى أبي العلاء ادريس المأمون الذي أخذ البيعة لنفسه في أشبيلية . وكان المأمون هذا من خلفاء الموحدين المشهورين بتشجيع العلم وكان لبني سعيد اتصال به قبل توليه الخلافة [1] .

ويبدو أن موسى وابنه بقيا في المغرب مدة من الزمن تقارب السنتين وذلك لجمع المادة التاريخية والشعرية الخاصة بمراكش لكتاب « المغرب » ففي سنة 627 نجدهما مارين بسبتة ، المواجهة لبر الأندلس من الطرف المغربي ، بعد أن التقيا بكاتبها أبي القاسم عبد الرحمن العثماني [2] والأرجح أنهما كانا قادمين من مراكش في تلك السنة .

وفي هذا الوقت تقلص نفوذ الموحدين في الأندلس وأخذ نجم ابن هود الثائر عليهم ، يعلو بعض الوقت ، ويظهر أن والد ابن سعيد رأى من حسن السياسة الإتصال بهذا الحاكم الأندلسي الجديد للإستفادة منه . ففي سنة 629 نرى موسى مع ابنه علي في غرناطة يحاول الإلتقاء بأبي عبد الله محمد بن عمار البرجي كاتب عسكر الثائر ابن هود [3] . وفي السنة التالية ، سنة 630 ، يعود ابن سعيد ـ ووالده معه ـ أدراجه الى ملاعب صباه في أشبيلية ، وقد بلغ سن العشرين حيث يعاود الإتصال بابن سهل ، ويلتقي بالشاعر الأديب أبي الوليد بن طيفور المارتلي [4] ، وبالأفلح اللخمي ، وزير ابن هود ، الذي كان عهده به مع والده « في اتصال مزاورة ، واطراد مجالسة ومحاضره » واقتباس من أدبه واستفادة . وقد زين له ابن سهل الاسرائيلي يوماً أن يشاركه في هجاء هذا الوزير الذي بدأت تظهر عليه بعض إمارات الغطرسة ، غير أنه عاد الى مدحه واسترضائه بتأنيب شديد من والده موسى [5] .

---

(1) النفح 3/127 .

(2) القدح 196 .

(3) لمصدر السابق 218 .

(4) المصدر السابق 183 .

(5) المصدر السابق 140 ـ 142 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا نجحت جهود والد ابن سعيد في محاولته الإتصال بابنْ هود. فقد ولاه أمرة الجزيرة الخضراء ـ من أعمال مملكة أشبيلية ـ بحسن وساطة الوزير الأفلح اللخمي[1] . فكانت تلك مناسبة طيبة لابن سعيد يعود فيها الى درسه ولهوه معاً . ومما يدل على نضجه وحسن تحمله للمسؤولية في تلك السن المبكرة . وهي سن الحادية والعشرين (631 هـ) أنه ناب عن أبيه في أمرة الجزيرة الخضراء فترة من الوقت .

ولكن ذلك لم يمنعه من أخذ حظه من اللهو في مرابع الجزيرة الخضراء متعاطياً الشعر مصاحباً للعلماء[2] . إلا أن هذا العيش الهنيء لم يطل بسبب الوشايات التي أوغرت صدر الوزير الأفلح فسعى في تأخير والد ابن سعيد عن الإمارة سنة 632 [3] .

وفي هذه الفترة كانت أشبيلية هدفاً لتنافس ثلاثة ثوار : الباجي وابن هود وابن الأحمر . ويبدو أن ابن سعيد بقي مع والده هذه الفترة في منطقة أشبيلية واتصل بأميرها الباجي ومدحه بقصيدة هنأه فيها بانهزام ابن هود [4]، إلا أن الباجي لم تطل مدة حكمه فما لبث ابن الأحمر أن فرض سيطرته على أشبيلية « وقتل ملكها المعتضد الباجي ، وكنت حينئذ هنالك وأنشدته قصيدة أولها :

لمثلك تنقاد الجيوش الجحافل
وتذخر أبناء القنا والقنابل[5]

ولا نعلم مدى علاقته بابن الأحمر ، إلا أن علاقته به لم تطل .

ونصل هنا الى الفترة الخطيرة الحرجة من حياة الأندلس ، فقد أخذت قواعدها الكبرى تسقط تباعاً في يد الاسبان وعلى رأسها مدينة قرطبة سنة 633 هـ . ويبدو أن موسى وولده أدركا في هذه الأثناء أن الأندلس لم

---

(1) المصدر السابق 140 ـ 142 .
(2) القدح 2 ـ 3 .
(3) المصدر السابق 142 .
(4) النفح 3/36 .
(5) المغرب 2/109 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعد بالمكان الصالح للإقامة . ولم يعد في الإمكان التنبؤ بثبات أية منطقة في وجه الزحف الاسباني الآتي من الشمال والشرق والغرب . وأعتقد أنهما قبل أن يغادرا الأندلس نهائياً قررا المرور بالمدن الأندلسية الواقعة في الطريق بين أشبيلية والساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس ، المواجه لتونس ، لجمع بعض المادة العلمية عنها .

وقبل إنهاء الحديث عن هذه الفترة الأشبيلية من حياة ابن سعيد ، أذكر عدداً من الشخصيات العلمية التي قابلها ابن سعيد في أشبيلية ، وإن لم يكن بالإمكان تحديد موعد تلك اللقاءات على وجه الدقة ـ مع أن الراجح أن أكثرها تم بين سنتي 630 ـ 632 :

1 ـ **أبو محمد عبد الحق الزهري القرطبي** : من حفاظ ومؤرخي الأندلس وأدبائها جالسته كثيراً في أشبيلية . . وكان والدي يكرمه لحفظه[1] » .

2 ـ **الأديب الهيثم أبو غالب الهيثم** : « حافظ أشبيلية لم ألق بها أحفظ منه[2] » .

3 ـ **الطيب الوشاح أبو الحجاج يوسف بن عتبة** : « اجتمعت به في أشبيلية[3] » .

4 ـ **أبو الحسن علي بن حجدر** : « كان زجالاً مطبوعاً ، صحب والدي مدة ، ولقيته أنا بأشبيلية[4] » .

5 ـ **أبو بكر الصابوني** : « اجتمعت به في أشبيلية والناس يجعلونه شاعرها المشار إليه . .[5] » .

---

(1) المغرب : 120/1 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 135 ، وفي ابن الزبير صلة الصلة ص 10 .

(2) المغرب : 258/1 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 158 ، وفي الرايات 18 .

(3) المغرب : 258/0 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 161 ، وفي الرايات 21 .

(4) المغرب ، 262/1 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 172 .

(5) المغرب : 263 ، وانظر ترجمته أيضاً في القدح 69 وفي الرايات 21 وفي ابن الأبار التحفة رقم 100 وكذلك ابن شاكر ، فوات الوفيات 168/2 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

6 ـ **أبو بكر محمد الأندي** : « قرأ معي على الشلوبيني إمام نحاة المغرب . تركته وقد رجع من أشبيلية الى بلده[1] » .

7 ـ **أبو العباس أحمد بن بلال** : « لقيته بالجزيرة ـ من توابع أشبيلية ـ فلقيت خير من يلقى مع تصرف في الأدب ومعرفة بالشعر وقول له ، وتركته هناك . . [2] » .

هذا بالاضافة الى ابن سهل ومن ذكرت من أساتذته ومن مر ذكره أثناء الحديث من قبل .

ابن سعيد في جولاته الأخيرة بالأندلس :

أشرت الى أن ابن سعيد ووالده قررا مغادرة الأندلس بعد تدهور الحالة حوالي سنة 633 . ويبدو أنهما غادرا أشبيلية نهائياً في أوائل تلك السنة متجهين نحو الجنوب الشرقي في المنطقة الواقعة بين مرسية ومالقة ، لُجمع ما فاتهما من مادة الكتاب « المغرب » والظاهر أن النية كانت متجهة للمرور بتونس ثم الرحيل الى المشرق وأداء فريضة الحج . وقد حاولا الإستفادة من مرورهما بكل مدينة واقعة في طريقهما .

ففي قرمونة التقى ابن سعيد بشاعرها ابن البلارج القرموني [3] وفي مالقة أقاما مدة [4] حيث التقى ابن سعيد بقاضيها أبي عبد الله ابن عسكر الذي كان «متبحراً في العلوم[5]» وبشاعرها أبي النعيم رضوان بن خالد الذي كان « من شعراء العصر المشهورين[6] » وبزجالها أبي علي الحسن الدباغ « وهو إمام في الهجو على طريقة الزجل . . [7] » ويصف ابن سعيد

---

(1) المغرب 1/338 ، انظر ترجمته في القدح أيضاً 168 .
(2) المغرب 1/326 ، انظر ترجمته في القدح أيضاً 86 .
(3) المغرب 1/300 .
(4) المصدر السابق 1/423 .
(5) المصدر السابق 1/431 ، القدح 130 .
(6) المصدر السابق 1/437 .
(7) المصدر السابق 1/438 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فترة وجوده في مدينة مالقة بأنها الوقت الذي كانت فيه « نية الرحلة المشرقية والزورة النبوية قد ثارت حينئذ في خاطري وملكت باطني وظاهري » . وقد أودعه القاضي ابن عسكر السابق الذكر أبياتاً لإنشادها في الروضة النبوية[1] مما يدل على أن ابن سعيد كان على أهبة الرحيل بالفعل . وآخر ما نصادف ابن سعيد في الأندلس عام 636 عندما كان ماراً بمرسية مع أبيه حيث اجتمعا بواليها العلامة عزيز بن خطاب وبالوزير الأندلسي الغرناطي المتغرب سهل بن مالك . وأرجح أن يكون مرورهما بالمدينة في شهر محرم وهو الوقت الذي بويع فيه الأمير ابن خطاب . وقبل شهر رمضان من ذلك العام وصل ابن سعيد برفقة أبيه الى تونس[2] .

2 ـ حياته في الغربة

إقامته في تونس :

كان من الطبيعي أن يختار ابن سعيد ووالده تونس ملجأ أول لهما بعد مغادرتهما الأندلس . فقد كانت تونس عندئذ في ظل الإمارة الحفصية التي استطاعت أن تظهر نفسها بمظهر الإمارة القوية المستقرة ، المشجعة للعلم وقد وردت الإشارة الى أن أغلب رجال العلم الأندلسيين اتجهوا نحو تونس بعد النكبة . فكان اجتماع ذلك العدد الضخم من رجال العلم بها سبباً هاماً لجذب ابن سعيد ووالده نحوها . أضف الى ذلك أن أحد بني سعيد وهو أبو عبد الله بن الحسين ، كان قائداً بارزاً في الدولة الناشئة .

وتدل فترة إقامتهما في تونس على أنهما أجلا حجهما ورحلتهما المشرقية . فقد بقيا فيها حوالي عامين ودخلا في خدمة أميرها الحفصي أبي زكريا (ـ 647)[3] وهو أول أمير حفصي يستقل بتونس عن الدولة

---

(1) القدح 130 .

(2) المصدر السابق 146 .

(3) النفح 3/44 ـ 45 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموحدية ويكون فيها دولة مستقلة ولا يمكن تحديد سبب بقائهما في تونس على وجه الدقة طوال هذه المدة : أهو من أجل الكسب والإعداد المالي للرحلة ؟ أم هو من أجل جمع مواد المغرب ؟ أم للإثنين معاً ؟ والذي يزيد الأمر غموضاً أنهما غادرا تونس مضطرين بعد أن أدت الوشايات الى تأخيرهما عن أعمالهما وبعد أن خشيا أن تؤدي تلك الوشايات الى ما هو أدهى من التأخير[1] .

وخلال هذه الفترة تولى ابن سعيد قراءة المظالم لأبي زكريا الحفصي بفضل وساطة ابن عمه أبي عبد الله بن الحسين بن سعيد ، قائد الأمير . ولكن ابن عمه هذا ما لبث أن انقلب عليه ، وأخذ يسعى ضده حتى نجح في تأخيره عن قراءة المظالم . وقد نظم ابن سعيد فيه كثيراً من القصائد يمدحه ويعاتبه ويستعطفه[2] رجاء أن يميل إليه ويعود الى مساعدته ، إلا أنه ـ على ما يظهر ـ لم ينجح في إعادته الى سابق سيرته .

ويبدو أن السبب في انقلاب أبي عبد الله بن الحسين ضد ابن عمه ، ابن سعيد ، هو تقرب الأخير من أحد منافسيه ـ وهو الوزير ابن جامع ـ الذي أخذ يتوسط لابن سعيد عند الأمير أبي زكريا ويرفع له أمداحه . ورغم أن ابن سعيد يقول أن الصحبة كانت وثيقة بين ابن عمه والوزير ابن جامع ، فإن النص التالي يوحي وكأن السبب في انقلاب ابن عمه ضده راجع الى تقربه من الوزير ابن جامع : « وكان سبب التغير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور أن ملك أفريقية استوزر أبا العلاء ادريس بن علي بن جامع فاشتمل علي ، وأولاني من البر ما قيدني وأمال قلبي إليه ، مع تأكيد ما بينه وبين ابن عمي من الصحبة ، فلم يزل ينهض بي ، ويرفع أمداحي للملك ويوصل إليه رسائلي منبهاً على ذلك ، مرشحاً ، الى أن قبض الملك على كاتب عسكره، وكان يقرأ بين يديه المظالم، فاحتيج الى من يخلفه في ذلك فنبه الوزير علي ـ مع أني كنت من كتاب الملك ـ فقلدني قراءة المظالم

---

(1) المصدر السابق 3/44 .

(2) المصدر السابق 3/41 ـ 44 .